ليو تولستوي

الحرب والسلام

ترجمة إدوار الخراط

الكتاب الثاني

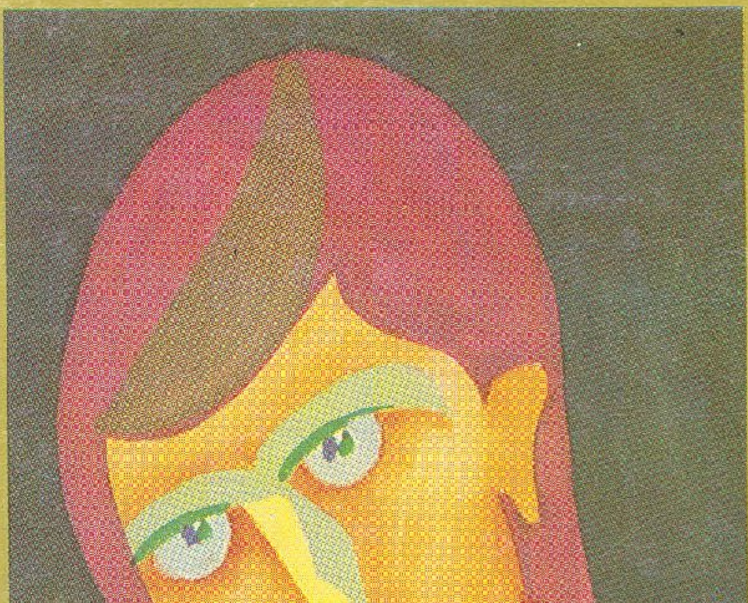

محمود الهندى

رواية

الحرب والسلام

رئيس مجلس الإدارة :

ا . د سمير سرحان

رئيس التحرير :

جمال الغيطانى

مدير التحرير

سعيد عبد الفتاح

الغلاف

والتصميم الجرافيكى

للفنان : محمود الهندى

ليو تولستوي

الحرب والسلام

رواية

ترجمة إدوار الخراط

الكتاب الثاني

الطبعة الثانية

١٩٩٣

الهيئة المصريه العامة للكتاب

الكتاب الثاني

الفصل الأول

في أكتوبر ١٨٠٥ ، كان يحتل قُرى ومدن أرشيدوقية النمسا جيشٌ روسي . وكانت تصل فرق جديدة من روسيا ، تتخذ مواقعها بالقرب من قلعة برونو ، وتُبهظ الأهالي الذين ينزل الجنود في بيوتهم . كانت برونو مقر قيادة القائد العام ، كوتوزوف .

وفي الحادي عشر من أكتوبر ١٨٠٥ ، كانت إحدى الفرق التي وصلت برونو، للتوّ، قد توقفت على بعد نصف ميل من البلدة ، في انتظار تفتيش القائد العام . وعلى الرغم من أن مظهر المنطقة وظروفها لم تكن تشبه روسيا في شيء — بساتين ، وأسوار حجرية ، وسقوف من القرميد ، وتلالٌ على البُعد — وعلى الرغم من أن السكان ، الذين كانوا يحدقون الى العساكر في فضول ، لم يكونوا بالروس ، فقد كان للفرقة بالضبط مظهر أية فرقة روسية ، تتخذ أهبتها للتفتيش في أي مكان في قلب روسيا .

ففي مساء اليوم الأخير من الرحلة ، جاء أمرٌ بأن القائد العام سوف يفتش الفرقة في أثناء الرحلة . وعلى أن كلمات الأمر لم تكن واضحة عند قائد الفرقة ، وثارت مسألة ما إذا كان العساكر ينبغي أن يكونوا في ملابس الميدان ، أو لا ينبغي ذاك ، فقد اتخذ قرار ، بعد تشاور قواد الكتائب أن ترتدي الفرقة ملابس الاستعراض . ووفقاً للقاعدة القائلة أنه يحسن

دائماً «أن ينحنى المرء كثيراً، عن ألا ينحنى بما فيه الكفاية»، ومن ثم فقد أُبقى الجنود ، بعد مسيرة عشرين ميلا ، ينظفون ويرتقون ويصلحون من شأنهم طيلة الليل ؛ دون أن يغمض لهم جفن ، وبقى اللازمون وقوّاد السرايا يحسبون ويعدون ، وأضحت الفرقة فى الصباح ، بدلا من ذلك الحشد المشتت الشمل الذى تضرب فيه الفوضى أطنابها ، صفوفاً منتظمة حسنة التنسيق من ألفى رجل ، كل منهم يعرف مكانه وواجبه ، وكل زرار وشريط فى ملابسه قد اتخذ موقعه ، يلمع من النظافة . ولم يكن كل شىء منظما مرتباً من الخارج فحسب ، بل لو أن القائد العام شاء أن يُلقى نظرة تحت الحلل الرسمية لوَجد أن كل رجل منهم يرتدى قميصا نظيفا ، ولوَجد فى جرابندية كل منهم العدد الصحيح من الأدوات ، كما يقول العساكر : «الإبرة والخيط والصابون وكل شىء . » ، إلا أن شيئا واحداً لم يكن يستريح إليه أحد . ذلك ما كانت عليه أحذية العساكر من حال كان أكثر من نصف أحذية العساكر قد اخترمتها الخروق . على أن ذلك العيب لم يكن ليعزى بحال إلى خطأ ما من قائد الفرقة ، ذلك أن القوميسارية النمسوية ، على الرغم من الطلب المردد المعاد ، لم تصرف الأحذية المطلوبة ، وكانت الفرقة قد سارت قرابة سبعمائة ميل .

كان قائد الفرقة جنرالا أميل إلى الشيخوخة ، بديناً ، غليظ البنية ، حامض الطبع ، أملح الحاجبين وسَبْلى اللحية ، وجنبه من الصدر إلى الظهر أعرض من بسطة الصدر بين الكتفين وكان يرتدى حلة قشيبة الجدّة ، تبدو ثنياتها حيث كانت مطوية، وشرائط كتف مذهبة، تلوح كما لو كانت قائمة منتصبة على كتفيه الجسيمتين . وكان يبدو بمظهر رجل يؤدى، وهو سعيد، واجباً من أخطر وأرصن واجبات حياته. وكان يسير أمام الصف ، ويشد من قامته عند كل خطوة ، ويقوّس ظهره تقويساً طفيفا . وكان جليا أن القائد معجب بفرقته ، ومغتبط بها ، وأن ذهنه جميعاً مشغول بها،

إلا أن مشيته الخيلاء تلك كانت تنم ، فيما يبدو ، عن أن المصالح الاجتماعية — فضلا عن المسائل الحربية — والجنس اللطيف، تشغل جانبا غير صغير من اهتمامه .

قال موجهاً الحديث إلى أحد قواد السرايا ، وقد أسرع هذا الأخير خُطاه إلى الأمام باسماً — كان جلياً أنهما ، كليهما ، يستشعران السعادة :

— حسناً ، يا ميشيل ميتريتش ، سيدى ؟ كنا مشغولين البارحة . إلا أننى أظن أن الفرقة ليست بالفرقة الرديئة ، هيه ؟

فأدرك قائد السرية السخرية المرحة فى ذلك ، وضحك .

— لن تطرد من الساحة ، حتى فى مراعى تسارتسين هنا .

فسأل القائد :

— ماذا ؟

وفى تلك اللحظة ظهر رجلان على صهوة جواديهما ، من الطريق الآتية من المدينة ، حيث كان بضع جنود من سلاح الإشارة قد اتخذوا مواقعهم . كان الرجلان هما ياور ، يتبعه عسكرى قوزاقى .

كان الياور قد أُرسل ليؤيد الأمر الذى لم تكن قد صيغت كلماته صياغة واضحة فى اليوم السابق ، وهو أن القائد العام يرغب فى رؤية الفرقة على الحال التى كانت عليها بالضبط أثناء سيرها : فى المعاطف ، معداتها ملفوفة مربوطة ، ودون أى استعداد بالمرة .

كان أحد أعضاء مجلس البلاط الحربى من ڤيينا ، قد جاء إلى كوتوزوف ، فى اليوم السابق ، باقتراحات وطلبات ترمى إلى أن ينضم إلى جيش الأرشيدوق فرديناند وماك . ولم يكن كوتوزوف يرى من الخير أن ينضم إلى ذلك الجيش فأراد ، إلى جانب حجج أخرى يدعم بها وجهة نظره ، أن يُطلع الجنرال النمسوى على ما كانت عليه القوات التى تصل من روسيا ، من حال يرثى لها . وكان ينوى أن يأتى ليلتقى بالفرقة لهذا الغرض ، ومن ثم فكلما

ساءت حال الفرقة، تحسن ذلك جداً عند القائد العام. وعلى أن الياور لم يكن يعرف هذه الملابسات ، فقد أبلغ الأمر الواضح المحدد بأن الرجال ينبغى أن يكونوا فى معاطفهم، وفى ملابس السير ، وإلا استاء القائد العام وعندما سمع قائد الفرقة ذلك ، هبط رأسه ، وهز كتفيه بصمت ، وبسط ذراعيه بحركة حانقة وقال :

ـــ يا لها من فوضى ..!

ثم قال لقائد السرية موبخاً :

ـــ أرأيت ..! ألم أقل لك يا ميشيل ميتريتش ، أنه مادام قد قيل « فى نظام السير » فمعنى ذلك فى المعاطف ؟

ثم خطا خطوةً إلى الأمام ، فى تصميم :

ـــ أوه ... يا إلهى ..!

وهتف بصوت أَلِفَ إصدار الأوامر :

ـــ قواد السرايا ..! صف ـ الضباط ..!

وسأل الياور باحترام ، مشيراً إلى الشخصية التى ينتظر وصولها .

ـــ متى سيكون هنا ؟

ـــ فى حوالى ساعة ، فيما أظن .

ـــ ألدينا وقت لتغيير الملابس ؟

ـــ لست أدرى يا جنرال ...

وذهب قائد الفرقة إلى الصف بنفسه ، وأصدر أمره للجنود بأن يغيّروا ملابسهم ويرتدوا معاطفهم . وجرى قواد السرايا إلى سراياهم ، وأخذ صف الضباط يهرولون (لم تكن المعاطف فى حالٍ حسنة جداً) ، وأخذت صفوف المربعات التى كانت حتى تلك اللحظة صامتة منتظمة ، على الفور ، تهتز وتطول وتمتد . وتطن بالأصوات واللغط . وكان الجنود ، فى كل ناحية ، يجرون هنا وهناك ، يلقون بجرابندياتهم من على أكتافهم بحركة

واحدة ، ويشدون الأشرطة على رؤوسهم ، ويفكون أشرطة معاطفهم ويدخلون أذرعهم المرفوعة فى أكمامها .

وعاد كل شىء إلى النظام بعد نصف ساعة ، إلا أن المربعات تحوّلت رمادية بعد أن كانت سوداء . وسار قائد الفرقة ، بخطواته الحادة المنفوضة إلى مقدمة الفرقة ، وتفحصها من بُعد .

وهتف ، وهو يقف ساكناً فجأة :

— ماهذا ؟ هذا ؟ قائد السرية الثالثة !

— قائد السرية الثالثة مطلوب عند الجنرال .! قائد السرية الثالثة .. السرية الثالثة عند الجنرال .

مرت الكلمات عبر الصفوف ، وجرى ياور يبحث عن الضابط الغائب ، ولما بلغت الكلمات غايتها ، وقد رددت بلهفـــة ، وعلى خطأ ، فأصبحت : « الجنرال عند السرية الثالثة... » ، ظهر الضابط المطلوب من خلف سريته، على أنه كان رجلا فى منتصف العمر ، وليس معتاداً على الجرى ، فقد خبّ يجرى متعثراً مرتبكا صوْب الجنرال . وكان وجه الكابتن ينم عن قلق تلميذ يطلب منه أن يلقى درساً لم يحسن حفظه . وظهرت على أنفه بقع يعزى إحمرارها ، بشكل واضح ، إلى الإسراف فى الشرب ، وكان فمه يرعش بعصبية . ونظر الجنرال إلى الكابتن ، علواً وسفلا ، عندما جاء يلهج ويبطىء خطاه إذ يدنو .

هتف قائد الفرقة ، وقد دفع فكه إلى الأمام ، مشيراً إلى جندى فى صفوف السرية الثالثة ، يرتدى معطفاً من القماش المائل للزرقة ، ظهر تعارضه مع المعاطف الأخرى :

— سوف تلبس رجالك فساتين قريباً ، أليس كذلك ..! ماهذا ..! ماذا تقصد ؟ القائد العام ينتظر وصوله وأنت تترك مكانك ؟ هيه ؟ سأعلمك أن تلبس رجالك معاطف مزوّقة للاستعراض .. هه ؟

ثبتت عينا قائد السرية على رئيسه ، وضغط إصبعين ، بتصلب متزايد مطرد ، على قبعته ، كما لو كان أمله الوحيد فى ضغطه ذاك .

وقال القائد منددا فى هزؤ صارم :

— حسناً ، لم لا تتكلم ؟ منَ ذاك الذى ألبسته عندك لبس المجرمين .؟

— يا صاحب السعادة ..

— حسناً ، صاحب السعادة ماذا ؟ صاحب السعادة ..! ماذا عن صاحب السعادة ..؟ لا أحد يدرى .

قال الكابتن بصوت خفيض :

— يا صاحب السعادة ، إنه الضابط دولوخوف ، الذى أُنزلت رتبته إلى نفر .

— حسناً ، هل أنزلت رتبته إلى نفر ، أم إلى فيلد مارشال ؟ فإذا كان أنزل إلى نفر . فيجب أن يلبس الملابس الرسمية مثل الآخرين .

— يا صاحب السعادة ، أنت أعطيته إجازة بنفسك ، أثناء السير ..

فقال قائد الفرقة ، وقد انفثأ قليلاً :

— أعطيته إجازة ؟ إجازة ؟ هذا شأنكم ، أنتم أيها الشبان ، بالضبط .. إجازة صحيح .. يقول لكم الواحد كلمة ، وأنتم .. ماذا ؟

ثم قال ، وقد استشاط من جديد :

— إنى أرجوك أن تُلبس رجالك كما يليق .

واستدار القائد ليلتفت إلى الياور ، واتجه بخطاه العنيفة المنفوضة أمام الصف . كان من الواضح أنه قد ابتهج لما أبداه ، هو نفسه ، من غضب وحنق ، وسار أمام الفرقة وهو يود لو أنه وقع على تعلة أخرى للغضب . وصرخ فى أحد الضباط إذ وجد شارةً غير مُلمّعة ، وصرخ فى آخر ، لأن الصف لم يكن مستقيما ، حتى بلغ السرية الثالثة .

وهتف القائد ، فى صوت به نبرة المعاناة والعذاب ، ومازال بينه بعد

وبين دولوخوف ، بمعطفه الرمادى المزرق ، خمس رجال :

ــ كيف تقف بهـ...ا... ـذا الشكل ؟ أين ساقاك ؟

فقوّم دولوخوف ، ببطء ، ركبته المحنية ، وهو ينظر مبادهة إلى وجه الجنرال ، بعينيه الصافيتين الوقحتين .

ــ ولماذا معطف أزرق ؟ هيا انزعه ... ! يا صف ضابط .!! غـيّر معطفه .. هذا المج ...

لـكنه لم يكمل .

فقد قاطعه دولوخوف بسرعة :

ــ يجب علىّ أن أطيع الأوامر ياجنرال ، لـكنى لست ملزماً بأن أتحمّـل ...

ــ لا كلام فى الصفّ ..! لا كلام ، لا كلام ..!

فأكمل دولوخوف بصوته المرتفع الرنان :

ــ لستُ ملزماً بأن أتحمل الإهانات .

والتقت أعين الجنرال والعسكرى ، وصمت الجنرال ، وشدّ وشاحه الضيق بغضب .

وقال وهو يشيح عنه :

ــ إننى أطلب منك أن تتفضل بتغيير معطفك .

الفصل الثانى

هتف جندى الإشارة فى تلك اللحظة :

ــ إنه قادم ..!

فاحتقن وجه قائد الفرقة ، وجرى إلى حصـانه ، وأمسك ركاب السرج بيدين مرتعشتين ، ورمى بجسمه فوق السرج ، واستقام ، وسلّ سيفه واتخذ وجهه مسحة سعيدة معقودة العزم ، وفتح فمه ، على عوج ،

مستعداً للهتاف . وسرت فى الفرقة رجفة ، كأنها طير ينفض ريشه ، ثم وقفت بلا حراك

وهتف قائد الفرقة

— إ ... نتباه ..!

بصوت يزلزل الروح ، ويعبّر عن الفرح ، لنفسه ، والصرامة ، للفرقة ، والترحيب بمقدم الرئيس .

وجاءت ، من الطريق الريفية العريضة التى تحفها الأشجار من جانبيها ، عربة فينيّة عالية ، فاتحة الزرقة ، تصر صريراً هيناً على مفصلاتها ، ويجرّها ست جياد تركض خبباً . وجاء يعدو ، وراء العربة ، تابعو القائد من الضباط ، وحرس من الجنود الكرواتيين . كان يجلس إلى جانب كوتوزوف جنرال نمسوى ، فى حلة بيضاء تبدو غريبة بين الحلل الروسية السوداء ووقفت العربة أمام الفرقة . كان كوتوزوف والجنرال النمسوى يتحدثان بأصوات خفيضة ، وابتسم كوتوزوف ابتسامة طفيفة وهو ينزل من العربة ، ثقيل الخطو ، كما لو أن هذين الألفين من الرجال ، يحدقون إليه منقطعى النفس ، وقائد الفرقة ، لم يكن لهم جميعاً وجود بالمرة .

ورنّت كلمة الأمر ، وارتعشت الفرقة ثانية ، إذ أدت التحية بالسلاح فى صلصلة . ثم فى وسط صمت كصمت القبور ، سُمع صوت القائد العام ، فى وهن . وجأرت الفرقة :

— صاحب السعادة .. يعيـ...ش ..!

ثم ساد السكوت المطبق مرة أخرى وقف كوتوزوف ، بداءة ، ساكناً ، بينما كانت الفرقة تتحرك ، ثم سار بين الصفوف ، مع الجنرال المرتدى حلته البيضاء ، يصحبهما المرافقون .

كان واضحاً ، من الطريقة التى أدى بها قائد الفرقة التحية للقائد العام ، وهو يثبت عينيه عليه ، وقد استقام عوده وتصلبت قامته بخشوع ، ومن

الطريقة التى كان يسير بها بين الصفوف ، وراء الجنرالات ، منحنياً إلى الأمام لا يوشك أن يضبط حركاته المرتجة ، ومن الطريقة التي كان يندفع بها عند كل كلمة أو إشارة من القائد العام . أنه كان يؤدى واجباته ، مرؤوساً ، بحماس أشد مما يؤديها رئيساً . وكانت الفرقة فى حالة ممتازة بالنسبة إلى الفرق الأخرى التي وصلت إلى برونو فى نفس الوقت ، بفضل صرامة قائدها ودأبه . ولم يكن فيها إلا ٢١٧ مريضاً ومتخلفاً . وكل شيء كان فى حال حسنة ، إلا الأحذية .

وسار كوتوزوف بين الصفوف يقف أحياناً ليقول بضع كلمات ودودة لضباط عرفهم أثناء حرب الأتراك ، وأحياناً للجنود أيضاً . وكان ينظر إلى أحذيتهم ويهز رأسه ، مرات عديدة ، بحزن ، مشيراً إلى الجنرال النمسوى وعلى وجهه تعبير كمن يقول انه لا يلقى باللوم على أحد ، وإن كان لا يملك إلا أن يلاحظ ما آلت إليه الأمور من حال سيئة . وكان قائد الفرقه يجرى إلى الأمام ، فى كل مرة ، مشفقاً أن تفوته كلمة واحدة من القائد العام عن الفرقة : وسار خلف كوتوزوف ، على مسافة تتيح سماع أى كلمة مهما قيلت بصوت خفيض جداً ، نحو عشرين رجلا من مرافقيه . وكان هؤلاء السادة يتحدثون معاً ، ويضحكون أحياناً . وكان أقربهم إلى القائد العام ملازم وسيم . كان ذلك هو الأمير بولكونسكى . وإلى جانبه زميله نيسفيتسكى ، ضابط أركان حرب ، طويل ، بدين مفرط البدانة ، وجهه وسيم عطوف باسم ، وعيناه نديتان . ولم يكن نيسفيتسكى ليستطيع ، إلا بمشقة ، أن يمتنع عن الضحك من ضابط فرسان أسمر يسير إلى جانبه . كان ضابط الفرسان هذا ، جادّ الوجه ، ودون ابتسامة ولا تغيير فى تعبير عينيه الثابتتين ، يرقب ظهر قائد الفرقة ، ويقلد كل حركة من حركاته . وكلما أجفل القائد وانحنى إلى الأمام ، أجفل ضابط الفرسان وانحنى إلى الأمام بنفس الطريقة تماماً .

وكان نيسثيتسكي يضحك، ويلكز الآخرين ليلفت نظرهم إلى المهرج .

كان كوتوزوف يسير بطيئاً ، وهْنان الحركة ، عبر آلاف الأعين الجاحظة من محاجرها ترقب الرئيس . فلما بلغ السرية الثالثة وقف فجأة . ولم يكن مرافقوه ينتظرون ذلك . فاقتربوا منه ، عن غير عمد .

وعرف الكابتن الأحمر الأنف ، الذي لقي التقريع بشأن المعطف الأزرق ، فقال :

— آه ، تيموخين ..!

وقد كان المرء ليظن من المستحيل أن يشعر الانسان من قامته بأكثر مما فعل تيموخين، عندما كان قائد الفرقة يقرّعه . ولكنه الآن، إذ كان القائد العام يوجه إليه الحديث ، شدّ من قامته إلى حد بدا معه أنه لم يكن ليطيقه لو أن القائد العام استمر ينظر إليه . ومن ثم فإن كوتوزوف ، ومن الواضح أنه فهم حالته ، ولم يكن ليتمنى له إلا كل خير ، التفت عنه بسرعة ، وقد رفّت على وجهه السمين المخدد بندوب الجروح ، ابتسامة ماتكاد تستبين . وقال يسأل قائد الفرقة :

— زميل آخر من أيام إسماعيل . ضابط شجاع . راضٍ عنه أنت ؟

فأجفل قائد الفرقة ، غير مدرك أن ضابط الفرسان يعكسه كما تعكسه المرآة ، وتحرك إلى الأمام ، وأجاب :

— تمام الرضا ياصاحب السعادة ..!

فقال كوتوزوف ، مبتسما ، ومبتعداً عنه :

— لكل منا أوجه ضعفه . كان يؤثر الشراب .

وخشي قائد الفرقة أن يُلق عليه باللوم لذلك ، فلم يجب . وفي تلك اللحظة لاحظ ضابط الفرسان وجه الكابتن المحمر الأنف ، وبطنه المسحوبة إلى الداخل ، فقلّد مظهره ووقفته بدقة ، بلغ منها أن لم يملك نيسفيتسكي إلا أن ضحك . فاستدار كوتوزوف . وكان من الواضح أن

الضابط يسيطر سيطرة تامة على وجهه ، فبينما كان كوتوزوف يستدير ، استطاع الضابط أن يأتى بحركه ثم اتخذ مظهراً فيه كل الجد ، والتوقير ، والبراءة .

كانت السرية الثالثة آخر السرايا وكان كوتوزوف يُعمل الفكر ، ويعالج ، فيما يبدو ، أن يتذكر شيئاً . خطا الأمير بولكونسكى إلى الأمام ، من بين الضباط الواقفين ، وقال بالفرنسية فى صوت خفيض :

— قلت لى أن أذكّرك بالضابط دولوخوف الذى أُنزلت رتبته ، فى هذه الفرقة .

سأل كوتوزوف :

— أين دولوخوف ؟

ولم ينتظر دولوخوف ، الذى كان قد ارتدى بالفعل معطفاً رمادياً ، حتى يُستدعى . وتقدم ، من بين الصفوف ، هذا الجندى الأشقر ، بعينيه الصافيتين الزرقاوين ، ومضى إلى القائد العام ؛ وأدّى التحية بالسلاح .

سأله كوتوزوف ، بعبوس طفيف :

— ألديك شكوى ؟

فقال الأمير بولكونسكى :

— هذا دولوخوف .

قال كوتوزوف :

— آه ! أرجو أن يكون فى ذلك درس لك . قم بواجبك . إن الامبراطور رحيم القلب . ولن أنساك لو كنت جديراً بالخير .

كانت العينان الرائقتان الزرقاوان تنظران إلى القائد العام بنفس جسارة نظرتهما إلى قائد الفرقة ، ويبدو من تعبيرهما ، أنهما تمزقان قناع المصطلحات والمواضعات التى تفصل بين قائد عام ، وجندى ، بهذا الفارق الشاسع .

قال دولوخوف بصوته الوطيد الرنان المتأنى :

— شيء واحد أطلبه من سعادتك . إنى أطلب فرصة لتعويض خطأى، ولأبرهن على ولائى لصاحب الجلالة الامبراطور ، ولروسيا ..!

فأشاح عنه كوتوزوف . ورفّت على وجهه ، مرة أخرى ، نفس ابتسامة العينين التى بدت عندما أشاح عن الكابتن تيموخين . أشاح بحركة مَنْ يقول أن كل ما قاله دولوخوف ، وكل ما كان فى وسعه أن يقوله ، شيء عرفه منذ أمد طويل . وأنه سئمه ، ولم يكن ذلك ما يريد بالمرّة . فأشاح عنه ، ومضى إلى العربة .

وانقسمت الفرقة سرايا ذهبت إلى المساكن التى خُصصت لها ، بالقرب من برونو ، حيث كانوا يأملون أن يستلموا أحذية وملابس ، وأن يستريحوا بعد سيرهم الشاق .

قال قائد الفرقة ، وقد لحق بالسرية الثالثة فى طريقها إلى المساكن المخصصة لها ، وركب إلى الكابتن تيموخين ، وكان يسير فى المقدمة :

— لن تُسرّها لى ، يا بروخور اجناتيتش ؟

كان وجه قائد الفرقة بعد أن مرّ التفتيش الآن على خير ، يسطع بسرور لا سبيل إلى كبحه . واستطرد :

— ذلك فى خدمة الامبراطور . ولا حيلة فيه . . . والمرء أحيانا يتعجل قليلا عند الاستعراض . . . إننى أول من يعتذر ، أنت تعرفنى ..! كان مسروراً جداً ..!

ومد يده للكابتن .

فأجاب الكابتن :

— العفو يا جنرال ، أكان يمكن أن أجرؤ . ؟

وازداد احمرار أنفه ، إذ ابتسم ابتسامة كشفت عن سنتين مفقودتين أطارتهما مؤخرة بندقية ، فى حملة إسماعيل .

— وقل للسيد دولوحوف أنني لن أنســـاه ، وفي استطاعته أن يستريح بالاً . وقل لي من فضلك — كنت أنوي أن أسألك — كيف سلوكه ، وبصفة عامة . . .

فقال تيموخين :

— فيما يتعلق بالخدمة ، دقيق كل الدقة، يا صاحب السعادة .. أما عن أخلاقه . . .

فسأل قائد الفرقة :

— ماذا عن أخلاقه ؟

فأجاب الـكابتن :

— تختلف باختلاف الأيام . فهو يوماً معقول مهذب دمث الخلق ، ثم في الغد حيوان متوحش ... وفي بولندا ، كاد يقتل يهودياً .

فقال قائد الفرقة :

— أوه ، حسناً ، حسناً ..! ومع ذلك فينبغي للمرء أن يرثي لشاب في هذه المحنة . أتعرف أن له أقرباء كبيري النفوذ ... حسناً إذن ، عليك إذن ...

فقال تيموخين ، وقد نمت إبتسامته عن فهمه لرغبة رئيسه :

— سأفعل ، ياصاحب السعادة .

— حسناً ، بالطبع ، بالطبع ..!

وذهب قائد الفرقة يبحث عن دولوخوف بين الصفوف ، وكبح عنان جواده ، وقال له :

— بعد الحكاية التالية ... شرائط .

فنظر دولوخوف حوله ، ولم يقل شيئاً . ولا تغيرت الابتسامة الهازئة على شفتيه .

واستطرد قائد الفرقة :

ـ حسناً .. هذا حسن إذن .

وأضاف حتى يسمعه الجنود :

ـ قدح من الفودكا للرجال مِنى . أشكركم جميعاً ..! الحمد لله ..!

وجاوز السرية ، ولحق بالسرية التالية .

قال تيموخين للملازم الثانى بجانبه :

ـ حسناً ، هو رجل طيب فى الحقيقة . يستطيع المرء أن يشتغل عنـده .

فقال الملازم ضاحكا :

ـ بكلمة واحدة ، رجل عنده قلب .

كان قائد الفرقة يلقب بملك القلوب .

انتقلت عدوى مزاج الضباط المبتهج، بعد التفتيش، للجنود. وسارت الفرقة فى مرح . وسمعت أصوات الجنود من كل جانب :

ـ ويقولون أن كوتوزوف أعمى ، بإحدى العينين ؟

ـ وهذا صحيح ..! أعمى كل العمى ..!

ـ لا ياصاحبي ، إنه أحدّ بصراً منك . أما عن الأحذية وشرائط الساق [1] فقد لاحظ كل شيء .

ـ وذلك الآخر الذى كان معه ، النمسوى ، كان يبدو كأنه بُيِّضَ بالطباشير ، أبيض مثـل الدقيق . . ! وأظن أنهم يلمعونه كما يلمعون البندقيات ..!

ـ اسمع يا فيديشون . . ! هل قال متى تبدأ المعارك ؟ كنت بالقرب منه أنت .. كلهم يقولون أن بونابرت نفسه فى برونو .

---

(١) كان الجنود الروس يلفون حول سيقانهم وأقدامهم شرائط طويلة من القماش بدلا من الجوارب .

— بونابرت نفسه . . ! أرأيتم هذا النبي . . ! يعرف كل شيء . . !
البروسيون الآن متمردون يحاربون ، والنمسويون يقمعونهم . فلما يقمعوهم تبدأ الحرب مع بونابرت . ويقول أن بونابرت فى برونو . . ! هذا دليل على أنك غبي . يحسن أن تسمع الكلام بعناية أكثر . . !

— عليهم اللعنة صولات التعيين هؤلاء . . ! أنظر ، السرية الخامسة تدخل القرية من الآن . . سيتناولون عشاءهم قبل أن نصل نحن إلى مساكننا .

— أعطني بسكوته يا حيوان . . !

— وهل أعطيتني الدخان أمس ؟ هذه هي الحكاية ياصاحبي . . ! طيب ، لا يهم ، خذ .

— يحسن أن يقفوا هنا ، وإلا سرنا أربعة أميال أخرى من غير طعام .

— ألم يكن هذا مدهشاً . عندما كان الألمان يوصّلوننا بالعربات . تجلس أنت مستريحاً ، وتسير العربات .

— أما هنا . يا أخي ، فالناس شحاذون . هناك كان الناس جميعاً يظهرون بمظهر البولنديين ، كلهم تحت التاج الروسي ، أما هنا فهم ألمان حقاً .

جاء أمر الكابتن :

— المغنّين . . إلى الأمام . . !

فخرج يجري من بين مختلف الصفوف نحو عشرين رجلا ، إلى الامام . واستدار قائدهم صاحب الطبلة ، وواجه المغنين . ورفع ذراعه ، وبدأ يغنى أغنية طويلة للجنود ، تبدأ بكلمات : « أشرق الصباح ، والشمس طلعت . . » وتنتهي : « إلى الأمام يا رفاقى للأمام . هيا إلى المجد ، خلف الأب كامينسكي » ، كانت هذه الأغنية قد أُلّفَتْ فى حرب الأتراك ، وأصبحت الآن تنشد فى النمسا ، والفرق الوحيد أن « الأب كوتوزوف » استبدلت

« بالأب كامينسكى » .

وهتف صاحب الطبلة بالكلمات الأخيرة بشكل مرتج منفوض ، كما يفعل الجنود ، وشوّر بذراعيه كما لو كان يلقى شيئاً على الأرض — وكان جندياً نحيل العود وسيما ، فى نحو الأربعين — ثم نظر إلى المغنين بصرامة ، وزمّ عينيه . فلما اطمأن إلى أن العيون جميعاً معلقة به ، رفع ذراعيه كلتيهما ، كما لو كان يرفع ، بحرص ، شيئاً خفياً ، وإن كان ثميناً ، فوق رأسه ، ويبقيه هناك برهة ، ثم يطوح به فجأة إلى الأرض ، وأخذ يغنى .

— يا جنينتى . يا جنينة ..!

وتبعه عشرون صوتا :

— يا جنينه جديدة ..!

وبالرغم من ثقل المهمّات التى يحملها عازف الصناجات ، فقد اندفع إلى المقدمة ، وسار ، أمام السريّة ، متراجعاً إلى الخلف ، ونفض كتفيه ولوّح بصناجاته ، كما لو كان يتهدد بها شخصاً ما . وكان الجنود يهزون أذرعهم ، ويسيرون فى خطو منتظم الايقاع على نحو تلقائى ، بخطىً طويلة .. وسُمع خلف السرية صوت العجلات ، وصرير المفصلات ، ووقع سنابك الخيل . كان كوتوزوف ومرافقوه يعودن إلى البلدة . وأشار القائد العام للجنود أن يواصلوا سيرهم معتاداً . وأبدى ، هو ومرافقوه جميعاً ، سرورهم لسماع الأغانى ومرأى الجندى الذى يرقص ، والجنود السائرين بشكل منتظم نشيط . وكان فى الطابور الثانى من الجانب الأيمن ، حيث مرت العربة بجوار السرية ، جندى أزرق العينين اجتذب الانتباه ، عن غير قصد منه . كان ذلك دولوخوف ، يسير برشاقة وجسارة ملحوظة ، مع إيقاع الأغنية ، وينظر إلى من كانوا يركبون ، بجواره ، كما لو كان يرثى لكل من لم يكن ، فى تلك اللحظة ، يسير مع السريّة . وتخلف الضابط حامل العلم من سلاح الفرسان ، الذى كان يقلد قائد الفرقة ، وأقبل على دولوخوف

كان حامل عَلَم الفرسان زيركوف ، فى وقت ما ، عضواً فى الجماعة المرحة التى كان يقودها دولوخوف فى بطرسبرج . وكان زيركوف قد التقى بدولوخوف ، وهو نفر ، فى الخارج ، فلم يرَ مما يليق أن يبدى معرفته به . أما الآن وقد تكلم كوتوزوف مع هذا السيد الجندى ، فقد وجه إليه الحديث ، بمودة صديق قديم

فقال له ، عن خلال الغناء ، وقد أبقى جواده يسير على حذو السرية :

ـــ كيف حالك يا صاحبى العزيز ؟

فأجاب دولوخوف ببرود :

ـــ كيف حالى ؟ حالى كما ترى .

كانت الأغنية البهيجة ، النشطة الإيقاع ، تُعطى نكهة خاصة لنغمة المرح السهل المتطلق التى يتكلم بها زيركوف ، وبرود دولوخوف المقصود فى إجابته .

وسأله زيركوف :

ـــ وكيف حالك مع الضباط ؟

ـــ على ما يرام . ناس طيبون . وكيف استطعت أن تتسلل إلى أركان الحرب ؟

ـــ أُلحقت بها ، وأنا فى الخدمة الآن .

وصمتا كلاهما .

ومضت الأغنية ، تثير حساً ، عن غير قصد ، من الشجاعة والابتهاج :

« وطار الصقر بعيداً . . من كُمّها اليمين »

ولعل حديثهما كان ليختلف ، لولا أثر هذه الأغنية..

سأل دولوخوف :

ـــ أصحيح أن النمسويين انهزموا ؟

ـــ يعرف الشيطان وحده ..! هذا ما يقولون .

فأجاب دولوخوف . بإيجاز ، ووضوح ، كما كانت تقتضيه الأغنية :

— يسرّني هذا .

قال زيركوف :

— اسمع ، تعال عندنا في إحدى الأمسيات ، ونلعب برتيتة .

— لِمَ ؟ أعندك نقود أكثر مما تريد !

— تعال ، صحيح .

— لا أستطيع . فقد أقسمت . لن أشرب ، ولن ألعب ، حتى أستعيد رتبتي .

— لن يتأخر هذا عن أول اشتباك .

— سنرى .

وصمتا ثانية .

— تعال إذا احتجت شيئاً ما . فالمرء في أركان الحرب ، يمكن على الأقل أن يكون ذا فائدة .

فابتسم دولوخوف :

— لا تهتم . إذا احتجت شيئاً لا أطلبه ، بل آخذه ..!

— حسناً ، إنما . .

— إلى اللقاء . .

— إلى اللقاء ..

« مازال الطريق بعيداً بعيداً »

« إلى أرض بلادي . »

فنَخَسَ زيركوف حصانه بالمهماز ، فطفر الحصان وتبختر مهتاجاً . يحجل من قدم إلى قدم ، غير واثق أي اتجاه يتخذ ، ثم قرّ اختياره ، فراح يعدو ، وتجاوز السرّية ، ولحق بالعربة ، وهو مازال يوقّع خطوَه على إيقاع الأغنية .

الفصل الثالث

بعد أن عاد كوتوزوف من الاستعراض ، أخذ الجنرال النمسوى إلى غرفته الخاصة ، ونادى ياوره وطلب منه بضع أوراق تتعلق بحالة القوات عند وصولها ، والخطابات التى جاءت من الأرشيدوق فرديناند ، وقد كان يقود الجيش الذى تقدّمه . وجاء الأمير أندرو بولكونسكي إلى الغرفة بالأوراق المطلوبة . كان كوتوزوف وعضو مجلس البلاط الحربي النمسوى ، يجلسان إلى مائدة بُسطَتْ عليها خريطة .

وقال كوتوزوف وهو يرمق بولكونسكي بنظرة :

— آه ...

كما لو كان يطلب من ياوره ، بهذه الكلمة أن ينتظر ، ثم واصل حديثه بالفرنسية .

قال ، متأنقاً فى عبارته تأنقاً يروق ، وبنغمة تضطر المرء أن يصغى إلى كل كلمة من كلماته إذ يقولها متدبراً متأنياً ، ومن الواضح أنه يصغى ، هو نفسه ، إلى صوته ، بارتياح وسرور :

— كل ما أستطيع أن أقول ، ياجنرال ، أنه لو كان الأمر يتوقف علىّ وحدى ، لجرت الأمور كما يشتهى صاحب الجلالة الامبراطور فرانسوا . ولكنت ، منذ أمد طويل ، انضممت إلى الأرشيدوق . وصدّقنى ، بشرفى ، كان ذلك ، عندى شخصياً ، ليكون عبئاً يخف عن كاهلى ، أن أسلم القيادة العامة للجيش لجنرال أكفأ وأقدر منى ، هو ثروة للنمسا ، وأن أخلص من مسئولية فادحة . ولكن الظروف أكبر منا أحياناً ياجنرال .

وابتسم كوتوزوف ، كما لو كان يقول : « لك ألا تصدقنى ، بل ليس يهمنى أن تفعل أو لا تفعل ، وإن كان ليس لك ماتستند إليه ، فما لو قلت لى ذلك ، وهو المهم » .

فلم يبد الارتياح على الجنرال النمسوى ، وإن لم يكن له الخيار إلا فى أن يجيب بنفس اللهجة .

وقال بنبرة غضوب تنم عن الحنق والشحان ، متناقضة مع كلماته المَلِقة :

— على العكس ، على العكس . إن صاحب الجلالة كبير التقدير لاشتراك سعادتك فى سبيل القضية المشتركة . ولـكننا نرى أن هذا التسويف يحرم الجيوش الروسية الباسلة ، وقادتها ، من أكاليل الغار التى أَلِفَتْ أن تظفر بها فى ساحات القتال .

وكان واضحا أن هذه العبارة الأخيرة قد أُعدّت من قبل .

فأحنى كوتوزوف رأسه دون أن تحُول ابتسامته ، وقال :

— أما عن جانبى ، فأنا على يقين — وبناء على الخطاب الأخير الذى شرفنى به صاحب السمو الأرشيدوق فرديناند ، فأظننى على معرفة — بأن الجيوش النمسوية ، بقيادة رجل فى خبرة الجنرال ماك ، قد أحرزت نصراً حاسما ، ولم تعُد بحاجة إلى معونتنا .

فعبس الجنرال . فعلى أنه لم تأت أخبار قاطعة بهزيمة النمسا ، فقد توفرت قرائن عدة تؤيد ما كان يحوم فى الجو من إشاعات سيئة ، ومن ثم فقد كان حديث كوتوزوف عن انتصار النمسا ، يبدو شديد القرب من السخرية ولـكن كوتوزوف ظل يبتسم فى لطف وأنْس ، وقد بقى على مظهره ، لم يتغير، يلوح كما لو كان يقول أنه له الحق فى افتراضه ذاك . وفى الحق كان الخطاب الأخير الذى تلقاه من جيش ماك يُنبئه بالانتصار ، ويقرر أن موقف الجيش، من الناحية الاستراتيجية، موقف مُواتٍ للغاية .

قال كوتوزوف ملتفتا إلى الأمير أندرو :

— أعطنى هذا الخطاب . تفضل بإلقاء نظرة عليه ..

وقرأ كوتوزوف ، وعلى جانبى فمه ابتسامة ساخرة ، الفقرة التالية

للجنرال النمسوى ، من خطاب الأرشيدوق فرديناند ، بالألمانية :

« لدينا قوات مركزة أكمل تركيز تبلغ نحو سبعين ألف رجل تؤهلنا للهجوم على العدو ، وهزيمته ، لو أنه عبر نهر الليش . ولما كنا ، فضلا عن ذلك ، نسيطر على الأولم فإننا سنحتفظ بالميزة التى تكفلها لنا سيطرتنا على ضفتى الدانوب كلتيهما . فإذا لم يعبر العدو الليش ، فإن باستطاعتنا ، فى أية لحظة ، أن نعبر الدانوب ، ونهاجم خطوط مواصلاته ، ونعود فنعبر النهر بعد ذلك فى اتجاه مجراه ، ونحبط كل محاولة للعدو أن يوجه قواته كلها ضد حليفنا المخلص ، ونحن ننتظر إذن ، فى ثقة ، أن يستكمل الجيش الروسى إعداده ، وستتاح لنا الفرصة معا عندئذ ، بسهولة ، أن ننزل بالعدو ما يستحقه من مصير . »

وتنهد كوتوزوف تنهدة عميقة عندما أنهى قراءة هذه الفقرة ، ونظر إلى عضو مجلس البلاط الحربى نظرة وديعة منتبهة .

قال الجنرال النمسوى :

ــ ولكنك تعرف القول المأثور الحكيم ، ياصاحب السعادة ، الذى ينصح بانتظار الأسوأ .

ومن الواضح أنه يريد أن يخلص من المزاح وأن يبلغ مرحلة الجد . ونظر ، دون قصد ، إلى الياور .

فقاطعه كوتوزوف وهو يلتفت أيضا إلى الأمير أندرو :

ــ معذرة ياجنرال .. اسمع ياصاحبي العزيز ، أطلب من كوزلوفسكى كل التقارير الواردة من طلائعنا ، هالك خطابان من الكونت نوستيتس ، وخطاب من سمو الأرشيدوق فرديناند ، وهذه ..

وأعطاه عدة أوراق :

ــ أكتب مذكرة واضحة عن كل هذا بالفرنسية ، تضم كل الأخبار التى جاءتنا عن تحركات الجيش النمسوى ، ثم اعطها لصاحب السعادة .

فأحنى الأمير أندرو رأسه ، دلالة على أنه فهم ، من أول الأمر ، لا ما قيل له فحسب ، بل ما كان كوتوزوف يود لو قاله أيضا ، وجمع الأرواق ، وانحنى لكليهما ، وسار يخطى خافتة على البساط ، وخرج إلى غرفة الانتظار .

وعلى أنه لم يمض وقت طويل ، منذ أن بارح الأمير أندرو روسيا ، فقد تغير إلى حد كبير فى أثناء هذه الفترة . ولم يوشك أن يبق أثر من خموله وتراخيه السابق ، فى تعبير وجهه ، وحركاته ، ومشيته . فقد كان يبدو الآن بمظهر رجل لا وقت عنده ليفكر فيما يترك عند الآخرين من أثر ، بل يشغله عمل شائق يروقه . وكان وجهه ينم عن قدر أكبر من الرضا بنفسه والارتياح لمن حوله ، وابتسامته ونظرته أضوأ وأجذب .

كان كوتوزوف قد تلقاه بعطف كبير ، عندما انضم إليه فى بولندا ، ووعد بألا ينساه ، ورفعه عن سائر الياورين ، وأخذه إلى ڤيينا ، وعهد إليه بالمهمّات الخطيرة وكتب إلى زميله القديم ، والد الأمير أندرو ، من ڤيينا .

« ابنك واعدٌ بأن يصبح ضابطاً ممتازاً ، باجتهاده ، وحزمه ، وسرعة بتّه للأمور . وأرى نفسى حَسن الحظ بأن يكون إلى جانبي مثل هذا المرؤوس . »

وكان للأمير أندرو ، كما كان الشأن فى مجتمع بطرسبرج ، سمتان جدّ متناقضتين ، بين أركان حرب كوتوزوف . وزملائه الضباط ، وفى الجيش عامة . كان البعض ، وهم أقلية ، يقرون باختلافه عن أنفسهم وعن الآخرين جميعا ، وينتظرون منه أشياءً جليلة عظيمة ، ويصغون إلى أقواله ، ويعجبون به ، ويقلدونه . وكان الأمير أندرو معهم طبيعيا ولطيفا . أما الآخرون ، وهم الأغلبية ، فلم يكونوا يحبونه ، ويرونه مغروراً ، بارداً غير لطيف . ولكن الأمير أندرو كان يعرف أن يتخذ مكانه بين هؤلاء الناس ، حتى ليحترموه ، بل يخشوه .

وعنـد خروجه من غرفة كوتوزوف إلى غرفة الانتظار ، وبيده الأوراق ، التقى بزميله ، الياور القائم بالعمل ، كوزلوفسكى جالسا ، ومعه كتاب ، إلى النافذة .

سأل كوزلوفسكى :

— حسناً أيها الأمير ..!

— مطلوب منى أن أكتب مذكرة بأسباب عدم تقدمنا .

— وما هذه الأسباب ؟

فهز الأمير أندرو كتفيه .

— أخبار من ماك ؟

— لا ..

— لو كان صحيحاً أنه انهزم لجاءت الأخبار .

فقال الأمير أندرو متجهاً إلى الباب الخارجى :

— يجوز .

إلا أنه ، فى تلك اللحظة ، جاء جنرال نمسوى طويل ، فى معطف كبير ، وحول عنقه نوط ماريا تيريزا ، وحول رأسه ضمادة سوداء ، ومن الواضح أنه وصل للتو ، فدخل بسرعة ، وصفق الباب . فأقصر الأمير أندرو .

قال الجنرال القادم لتوِّه :

— القائد العام كوتوزوف ؟

وهو يتكلم بسرعة ، بلكنة ألمانية جافية ، وينظر إلى الجانبين ، متجهاً مباشرة إلى الباب الداخلى .

فقال كوزلوفسكى ، وهو ينهض متعجلا ويسد الطريق إلى الباب أمام الجنرال غير المعروف :

— القائد العام مشغول . مَنْ أقول ؟

فنظر الجنرال غير المعروف بزراية واستياء إلى كوزلوفسكى ، من على ، فقد كان الأخير يميل إلى القصر ، كما لو كان يدهشه أن هناك من لا يعرفه .

وردّد كوزلوفسكى بهدوء :

— القائد العام مشغول .

فرانت سحابة على وجه الجنرال ، وارتعشت شفتاه . وأخرج دفتر مذكرات ، وخطّ شيئاً بالقلم فى عجلة ، وانتزع الصفحة ، وأعطاها كوزلوفسكى ، وخطا بسرعة إلى النافذة ، وألقى بنفسه فى مقعد ، وهو يحدّق لمن كان بالغرفة ، كمن يسأل : « لماذا ينظرون إلىّ ؟ » . ثم رفع رأسه ، ومد عنقه كما لو كان يهم بأن يقول شيئاً ، لكنه أخذ ، على الفور ، فى غير اهتمام متكلف ، يدندن لنفسه ، فيصدر عنه صوت غريب انقطع على الفور . انفتح باب الغرفة الخاصة ، وظهر كوتوزوف على الباب . وانحنى الجنرال المعصوب الرأس إلى الأمام ، كما لو كان يهرب من خطر ما ، وأقبل على كوتوزوف بخطى سريعة واسعة ، بساقيه النحيلتين .

وقال بصوت مكسور ، بالفرنسية :

— أنت ترى ماك التعس الحظ ..!

بقى وجه كوتوزوف ، وهو يقف بالباب المفتوح ، ساكنا لا حراك به بالمرة ، لحظات قلائل . ثم سرت فى وجهه الغضون ، كأنها موجة . وعاد جبينه ناعماً مرة أخرى . وأحنى رأسه باحترام . وأغمض عينيه . وترك ماك يدخل الغرفة قبله ، بصمت ، وأقفل الباب بنفسه وراءه .

واتضح أن الأخبار التى شاعت عن هزيمة النمسويين ، وتسليم الجيش بأسره فى أولم ، أخبار صحيحة . وفى خلال نصف ساعة ، أرسل الياوران فى عدة اتجاهات ، ومعهم أوامر تقول أن القوات الروسية التى ظلت حتى ذلك الحين ، دون اشتباك ، سوف تلتقى ، كذلك ، بالعدو وشيكا .

كان الأمير أندرو أحد الضباط النادرين فى أركان الحرب الذين همّهم الأكبر ينحصر فى تطوّر الحرب من الوجهة العامة . فلما رأى ماك ، وسمع تفاصيل الكارثة ، أدرك أن نصف الحملة قد مُنى بالضياع ، وفهم كل الصعوبات فى موقف الجيش الروسى ، وتصوّر ، بوضوح وسطوع ، ماذا بانتظار هذا الجيش ، والدور الذى سيكون عليه ، هو ، أن يلعبه . وخامره ، عن غير طواعية ، شعور باهتياج سعيد ، إذ فكر فيما لقيته النمسا ، على صلفها ، من إذلال ، وأنه عساه فى خلال أسبوع يرى أول لقاء بين الروس والفرنسيين ، ويشترك فيه ، منذ أن لقيهم سوڤوروف . وخشى أن ترجح عبقرية بوناپرت كل بسالة القوات الروسية . لـكنه لم يطق ، فى الوقت نفسه ، أن يسلم بأن بطله قد يلحقه العار .

ومضى الأمير أندرو إلى غرفته ، وقد هاجته وأحنقته هذه الأفكار ، ليكتب لأبيه . فقد كان يكتب له كل يوم . والتقى ، فى الممر ، بنسفيتسكى الذى كان يشاطره غرفته ، والمهرج زيركوف . وكانا ، كالمعتاد ، يضحكان .

سأله نسفيتسكى ، وقد لاحظ وجهه الشاحب ، وعينيه المتألقتين :

— لماذا أنت كئيب بهذا الشكل ؟!

فأجاب بولكونسكى :

— ليس ثم ما يدعو للبهجة .

وعندما التقى الأمير أندرو بنسفيتسكى وزيركوف ، جاء نحوهم من الطرف الآخر للممر ، ستراوش ، وهو چنرال نمسوى كان فى هيئة أركان كوتوزوف ، مسئولا عن تموين الجيش الروسى ، ومعه عضو مجلس البلاط الحربى الذى وصل البارحة . وكان فى للممر الواسع فسحة كافية تتيح للچنرالين أن يمرا بسهولة إلى جانب الضباط الثلاثة ، ولكن زيركوف دفع نسفيتسكى إلى جنب بذراعه . وقال بصوت متقطع النفَس :

— إنهم قادمون ..! إنهم قادمون ..! قف على جنب ، أفسح الطريق ،

أفسح الطريق أرجوك ..!

ومر الجنرالان . وهما يبدوان كما لو كانا يودان ألا يجتذبا ما قد يحرج الصدر من انتباه . ولاحت فجأة . على وجه المهرج زيركوف ، ابتسامة حمقاء من الجنرال ، لم يستطع فيما يبدو أن يكاتم بها .

وقال بالألمانية ، وهو يخطو إلى الأمام موجهاً الحديث إلى الجنرال النمسوى :

— يا صاحب السعادة ، لى الشرف بأن أهنئك .

وأحنى رأسه ، وحك الأرض بإحدى قدميه أولا ، ثم بالأخرى ، فى حركة لا رشاقة فيها ، كطفل فى درس الرقص .

نظر إليه عضو مجلس البلاط الحربى نظرة صارمة ، ولكنه لما رأى الجد فى ابتسامته الغبية ، لم يملك إلا أن يعطيه لحظة اهتمام . فزم عينيه مبدياً أنه يلق إليه بسمعه .

— لى الشرف بأن أهنئك . فقد وصل الجنرال ماك ، فى خير حال ، وإن كان عنده رض بسيط ، هنا بالضبط .

وأشار إلى رأسه ، بابتسامة وضاءة :

فعبس الجنرال ، وأشاح عنه ، ومضى فى سبيله .

وقال بغضب ، بعد أن سار بضع خطوات :

— يا إلهى . . أية سذاجة . .!

فألقى نسفيتسكى بذراعيه ، ضاحكاً ، حول الأمير أندرو ولكن أندرو ازداد شحوبه ، فدفعه عنه بنظرة غاضبة . واستدار إلى زيركوف . والحنق العصبى الذى أثاره ظهور ماك ، وأخبار هزيمته ، وتفكيره فيما ينتظر الجيش الروسى ، وجدت كلها منفرجاً فى غضبه على دعابة زيركوف التى جاءت فى غير وقتها .

قال بحدة ، وفكه السفلى يرتعش رعشة طفيفة :

ــ إذا كنت . يا سيدى . قد اخترت لنفسك أن تكون مهرجاً ، فلا أستطيع أن أحول دونك وذلك . ولكنى أحذرك انك إذا جرؤت أن تهرج فى وجودى ، فسأعلمك أن تحسن السلوك .

بهت نسفيتسكى وزيركوف من هذه الهَبَّة حتى طفقا يحدقان إلى بولكونسكى فى صمت ، بعيون مفتوحة على سعتها .

قال زيركوف :

ــ ماذا حدث ؟ هنأته فقط .

فصاح بولكونسكى :

ــ لست أهْذر معك ، أسكت من فضلك ..!

وأخذ بذراع نسفيتسكى . وترك زيركوف الذى ارتج عليه .

قال نسفيتسكى يعالج أن يطايبه :

ــ هيا ، ماذا جرى يا أخى ؟

فهتف الأمير بولكونسكى ، وقد وقف من فرط انفعاله :

ــ ماذا جرى ؟ ألا تفهم أننا إما ضباط نخدم القيصر والوطن ، ونفرح لنجاح قضيتنا المشتركة ، ونحزن لما يصيبها من خطب ، أو أننا مجرد خدم ، لا يهمهم إطلاقاً شغل سادتهم .

وقال بالفرنسية ، كأنما يدعّم آراءه بالعبارات الفرنسية :

ــ أربعين ألف رجل يُصرعون ، وجيش حلفائنا يُقضى عليه ، وتجدون فى ذلك دعابة تضحككم . يليق هذا بولدٍ تافه مثل هذا الشخص الذى اتخذت منه صديقاً ، لا بكَ أنت . لا يليق بك .

ثم قال بالروسية :

ــ غرٌّ أحمق ذاك الذى يستطيع أن يُسَلِّى نفسه بهذه الطريقة .

ولكنه قال هاتين الكلمتين بلهجة فرنسية ، فقد لاحظ أن زيركوف ما زال بوسعه أن يسمعه .

وانتظر لحظة ، ليرى ما إذا كان سيرد عليه حامل العَلَم . لكنه استدار ، وخرج من الممر .

الفصل الرابع

كان فرسان بافلوجراد مرابطين على بعد ميلين من برونو . وكانت الفصيلة التي يؤدي فيها نيكولاس روستوف خدمته ، برتبة صف ضابط ، مرابطة في قرية سالزنيك الألمانية .

وكانت أحسن مساكن القرية قد أفردت لكابتن الفرسان دينيزوف ، قائد الفصيلة ، وهو معروف في آلاي الفرسان كله باسم فاسكا دينيزوف . وكان صف الضابط روستوف ، منذ لحق بالفرقة في بولندا ، يسكن مع قائد الفصيلة .

وفي ١١ أكتوبر ، يوم كانت القيادة العامة كلها تموج بأخبار هزيمة ماك ، كانت حياة ضباط هذه الفصيلة ، في معسكرها ، تجري كالمألوف . كان دينيزوف قد ظل يخسر في لعب الورق طيلة الليل ، ولم يكن قد عاد بعد ، حينما وصل روستوف ممتطياً جواده ، عائداً من حملة لجمع العلف ، في بُكرة الصبح . وكان روستوف يرتدي حلة صف ضابط ، فدفع جواده حتى بلغ الشرفة ، وطوح بساقه فوق السرج بحركة فتية مرنة ، ووقف لحظة على ركاب السرج كما لو كان لا يودّ أن يفترق عن جواده ، ثم وثب في النهاية ، ونادى عسكري المراسلة .

وقال لعسكري الفرسان الذي اندفع ، لايلوي على شيء ، إلى الحصان :

— آه يا بونداريكو ، يا صاحبي العزيز ..! مَشِّه جيئة وذهاباً يا أخي . .

بتلك المودة الأخوية التي يبديها الشبان الدمثو الخُلق نحو الجميع ، عندما يكونون سعداء .

فأجاب الأوكرانى مرحاً ، وهو يطوح برأسه :

— نعم يا صاحب السعادة .

— خلّ بالك . مشّه جيئة وذهاباً كما ينبغى ..!

فاندفع عسكرى آخر من الفرسان نحو الحصان ، لكن بوندارينكو كان قد ألقى لجام الشكيمة ، بالفعل ، فوق رأس الحصان . كان واضحاً أن صف الضابط كريم فى نفحاته وكانت خدمته مجزية . وربت روستوف عنق الحصان ، ثم جنبه ، وتمهل لحظة .

وخطر له ، وهو يبتسم :

— عظيم ..! سوف يصبح حصاناً مدهشاً ..!

وجرى يرقى درجات الشرفة ، ممسكا بسيفه ، ومهمازه يصلصل . كان صاحب البيت يرتدى صديرية ، وقبعة مدببة الطرف ، وفى يده مِذْراة ، وهو يخرج السباخ من حظيرة البقر ، فأطل ، وأشرق وجهه للتو عند ما رأى روستوف .

وقال وهو يغمز بابتسامة مرحة ، ومن الواضح أنه مسرور بتحية الفتى :

— يا صباح الخير . ! أسعدت صباحاً جداً ..!!

قال روستوف — بالألمانية أيضاً — بنفس الابتسامة الأخوية السعيدة التى لم تبرح وجهه المتدفق شغفاً بالحياة :

— مشغول من الآن ؟

ثم قال يردد كلمات طالما رددها صاحب البيت الألمانى :

— يعيش النمسويون ..! يعيش الروس ..! يعيش الامبراطور ألكسندر ..!

فضحك الألمانى ، وخرج من حظيرة البقر ، وخلع قبعته ولوح بها فوق رأسه هاتفاً :

— ويعيش العالم كله ..!

فلوّح روستوف بقبعته فوق رأسه كما فعل الألماني ، وهتف ضاحكا :

— ويعيش العالم كله ..!

وعلى أنه لا الألماني الذي ينظف حظيرة بقره ، ولا روستوف الذي عاد مع عساكره من طابور البحث عن العلف ، كان ثمّ سبب يسعدهما ، فقد نظرا إلى أحدهما الآخر بسرور وبهجة ، ومحبة أخوية ، وهزا رأسيهما دلالة على تعاطفهما التبادل ، وافترقا مبتسمين . وعاد الألماني إلى حظيرة بقره . ومضى روستوف إلى الكوخ الذي كان يشغله مع دينيزوف .

وسأل مراسلة دينيزوف ، لافروشكا ، وقد كانت الفرقة كلها تعرف فيه وغداً لا خلاق له :

— أين سيدك ؟.

فأجاب لافروشكا :

— لم يعد منذ المساء . لا بد أنه خسر . أنا أعرف الآن ، إذا كسب عاد مبكراً يتباهى ، أما إذا بقي حتى الصباح ، فمعنى ذلك أنه خسر ، وسيعود مستشيطاً من الغضب . أتريد قهوة ؟

— نعم .

وأتى لافروشكا بالقهوة بعد عشر دقائق . وقال :

— إنه قادم ..! جاءت المتاعب ..!

أطل روستوف من النافذة ، فرأى دينيزوف عائداً إلى البيت . كان دينيزوف رجلا صغير القامة ، أحمر الوجه عيناه سوداوان مُشعَّتان ، وله شعر وشارب أسود مشعث ، وكان يرتدي عباءة مفكوكة ، وبنطلونه واسع تتدلى ثنياته ، وقبعته مغضنة على مؤخرة رأسه . وصعد إلى الشرفة ، جهم الوجه ، خافض الرأس .

وصاح بصوت مرتفع غضوب :

— لافروشكا ..! خذه يا مغفل ..!

فأجاب صوت لافروشكا :

ــ طيب ، هأنذا آخذه .

وقال دينيروف ، وهو يدخل الغرفة :

ــ آه ، استيقظت من الآن .

فأجاب روستوف :

ــ من زمن طويل . وخرجت أبحث عن العلف ، ورأيت فراولين ماتيلد .

فهتف دينيزوف ، وهو لا ينطق الراء :

ــ صحيح ..! وأنا خسئيت في اللعب يا أخي . خساية تغفيل ..! حظّ نيلة ..! حظ نيلة .. وما أن ذهبت أنت بدأت أخسى . . وظل الحال هكذا .. أنت هناك ..! شاى ..!

وزمّ وجهه كما لو كان يبتسم ، فافتر عن أسنانه القصيرة القوية ، وأخذ بأصابعه القصيرة الغليظة ، بكلتا يديه ، يشعّث شعره الأسود الكثيف المشوّش .

وقال وهو يدلك جبهته ، ووجهه كله ، بكلتا يديه :

ــ ما الذي دفعني للذهاب لذلك الفار ؟ (ضابط يكنى عندهم بالفار) ، تصور ، لم يدعني أكسب مرة واحدة ، ولا مرة ..!

وأخذ البيبة المشتعلة التي قُدّمت له ، وأمسك بها في قبضته ، ودقّ بها على الأرض ، حتى طار الشرر منها ، وهو ما زال يهتف :

ــ يترك الواحد يكسب الفرد ، ثم يلم الجوز ، يعطى الفرد ويخطف الجوز ..!

وبعثر الطباق المحترق ، وهشّم البيبة ، ورماها . ثم بقى صامتاً لحظة ، ونظر ، بغتة ، إلى روستوف ، بعينيه السوداوين المتألقتين ، مبتهجاً :

ــ لو أن عندنا نساء هنا ، على الأقل . ولكن لاشىء إلا أن يسكر

المرء . ليتنا نبدأ الحرب سريعاً .

والتفتت إلى الباب إذ سمع وقع أحذية ثقيلة ، وصلصلة مهماز ، وقفت فجأة ، ثم شخصاً يكحّ باحترام ، فهتف :

— هاللو . . من هناك ؟

قال لافروشكا :

— صول إمدادات الفصيلة . . !

فازداد تغضن وجه دينيزوف .

وتمتم ، وهو يلقى بكيس به بعض الذهب :

— اللعنة . . !

ثم قال :

— روستوف ، ياصاحبي العزيز ، أنظر كم بقى ، وادفع الكيس تحت المخدة .

وخرج إلى صول الإمدادات .

فأخذ روستوف النقود ، وسوى القطع الجديدة والقديمة ، بشكل آلىّ ، فى أكوام منفصلة ، وأخذ يعدها .

وجاء صوت دينيزوف من الغرفة المجاورة .

— آه . . ! تليانين . . ! كيف حالك ؟ نفّضونى الليلة الماضية .

فأجاب صوت رفيع مُزقزق :

— أين ؟ عند بايكوف ؟ عند الفار ؟ كنت أعرف . .

ودخل الغرفة الملازم تليانين ، ضابط صغير القامة من نفس السرية .

دفع روستوف بالكيس تحت المخدة ، وهز اليد الصغيرة الندية التى تقدمت لمصافحته . كان تليانين ، لسبب ما ، قد نقل من الحرس ، قبل الحملة مباشرة ، وكان حسن السلوك جداً فى الفرقة ، لكنه لم يكن محبوباً . وكان روستوف ، بالأخص ، يُمقته ، ويُعجزه أن يقهر كراهته التى

لا سبب لها ، لهذا الرجل ، ولا أن يخفيها .

وسأله :

ــ حسناً أيها الفتى ، كيف حال «الغراب» !

كان الغراب حصاناً فتياً باعه تليانين إلى روستوف

لم يكن اللازم ينظر أبداً إلى محدِّثه مواجهة ، كانت عيناه تحوم دائماً متنقلتين من شيء لآخر . وقال :

ــ رأيتك تركب هذا الصباح ...

فأجاب روستوف :

ــ أوه ، على مايرام ، حصان حسن ..

على أن الحصان الذى كان قد دفع فيه سبعمائة روبل لم يكن يساوى نصف هذا المبلغ .

ثم قال :

ــ بدأ يعرج قليلا بساقه الأمامية اليسرى .

ــ انشرخ الحافر ..! هذا لاشيء . سأعلمك ماذا تفعل ، وأريكَ المسامير التى عليك أن تستخدمها .

قال روستوف :

ــ نعم ، لو تفضلت .

ــ سأريك ، سأريك ..! ليس هذا بسرّ . وهذا حصان سوف تشكرنى عليه .

فقال روستوف ، حتى يتجنب تليانين :

ــ فسآمر بالاتيان به .

وخرج ليصدر الأمر .

كان دينيزوف ، فى الممر ، جالساً القرفصاء على العتبة ، وفى يده الغليون ، فى مواجهة صول الإمدادات الذى كان يبلغه تقريره . ولما رأى

روستوف ، زمّ وجهه ، وأشار بإبهامه من فوق كتفه ، إلى الحجرة التى كان يجلس فيها تليانين ، وعبّس ونفَضَ نفسه من الاشمئزاز .

وقال ، بغض النظر عن وجود صول الإمدادات :

— أف ..! لا أحب هذا الشخص .

فهزّ روستوف كتفيه كما ليقول : « ولا أنا ، فماذا يفعل المرء ؟ » وأصدر أمره ، وعاد إلى تليانين .

كان تليانين يجلس فى نفس الوضع المتراخى الذى تركه عليه روستوف يدعك يديه الصغيرتين البيضاوين .

وخطر لروستوف وهو يدخل :

— حسناً ، لا شك أن هناك أناساً يثيرون القرف .

سأل تليانين ، وهو ينهض ، وينظر حوله بلا احتفال :

— قلت لهم أن يأتوا بالحصان ؟

— قلت لهم .

— فلنذهب بأنفسنا . إنما جئتُ لأسأل دينيزوف عن الأمر اليومى للأمس ، هل بَلَغَك يا دينيزوف ؟

— لم يصل بعد . إلى أين تذهبان ..؟

فقال تليانين :

— أريد أن أعلّم هذا الفتى كيف يضع حدوة فى ساق حصان .

وعبرا الشرفة، وذهبا إلى الاصطبل . وأخذ الملازم يشرح كيف يُدق الحافر بالمسامير ، ثم ذهب إلى مسكنه .

فلما عاد روستوف ، وجد على المائدة زجاجة من الڤودكا ، وقطعة من السجق . وكان دينيزوف جالساً إلى المائدة ، يحكّ بريشته على صفحة من الورق . ونظر إلى وجه روستوف بجهامة وقال :

— أكتب لها .

وارتفق المائدة ، وفي يده الريشة ، وكان واضحاً أنه ابتهج أنْ أُتيحت له الفرصة لـكي يقول ، سريعاً ، مايودّ كتابته ، فأخبر روستوف بمضمون خطابه . ثم قال :

ـــ أنت ترى، ياصديقي . عندما لانحب ، ننام . نحن أولاد التراب .. ولـكن ما أن يحب المرء حتى يصبح المرء إلها، ويصبح المرء نقياً، كما لوكان في أول أيام الخليقة ..

وهتف بلاڤروشكا الذي أقبل عليه ، مع ذلك ، دون أدنى حياء :

ـــ مَنْ هناك الآن ؟ ارسله إلى الشيطان . أنا مشغول ..!

فقال لاڤروشكا :

ـــ ومن ليكون ؟ أنت قلت له بنفسك أن يأتى . صول الإمدادات يريد النقود .

عبَس دينيزوف ، وهَمّ أن يصيح بإجابة ما ، لـكنه كفّ .

وتمتم لنفسه :

ـــ شغلة فظيعة . .

وسأل ، ملتفتاً إلى روستوف :

ـــ كم بقى بالـكيس ؟

ـــ سبع إمبريالات جديدة وثلاث قديمة .

ـــ أوه .. هذا فظيع ..!

وهتف بلاڤروشكا :

ـــ مالك ، لماذا تقف هكذا كخيال المقاثه ؟ نادِ صول الإمدادات .

قال روستوف ، وقد تضرّج وجهه :

ـــ دعني أقرضك شيئاً من النقود ، لو سمحت يا دينيزوف ، عندى شيء من النقود ، كما تعرف .

فزام دينيزوف :

— لا أحب أن أقترض من أصحابى ، لا .

فعاد روستوف يقول :

— ولـكنك تهيننى إذا لم تقبل منى نقوداً على سبيل الزمالة . فعندى حقاً نقود .

— لا ، قلت لك .

وذهب دينيزوف إلى السرير ، ليأتى بالـكيس من تحت المخدة .

— أين وضعته يا روستوف ؟

— تحت المخدة السفلى .

— ليس هناك .

رمى دينيزوف بالمخدتين جميعاً إلى الأرض . لم يكن هناك شىء .

— هذه معجزة .

قال روستوف، وهو يلتقط المخدتين، واحدة بعد الأخرى، ويهزها :

— أنظر ألم تسقط ؟

وجذب اللحاف ، وهزه . لم يكن هناك شىء .

قال روستوف :

— يا إلهى أيمكن أن أكون نسيت ؟ لا ، إننى أتذكر أنه خطر لى أنك تحتفظ به تحت رأسك كالـكنز . وضعته هنا بالضبط .

وسأل ملتفتاً إلى لافروشكا :

— أين الـكيس ؟

— لم أدخل الغرفة . لاشك أنه حيث وضعته .

— لـكنه ليس هناك ..!

— أنت دائماً هكذا ، ترمى أى شىء فى أى مكان ، وتنساه . أنظر فى جيوبك .

قال روستوف :

— لا ، لو أنني لم يخطر لي أنه كالكنز .. لكني أذكر أنني وضعته هناك .

فقلب لافروشكا كل ما على السرير ، ونظر تحت السرير ، وتحت المائدة ، وبحث في كل مكان ، ثم وقف ساكتاً في وسط الغرفة . وكان دينيزوف يراقب حركات لافروشكا بصمت ، فلما طوّح الأخير بذراعيه في دهشة ، قائلا أنه لايعثر عليه في أي مكان ، رمق روستوف :

— روستوف ، أنت لا تلعب لعبة أطفال ؟

أحسّ روستوف نظرة دينيزوف مثبتة عليه ، فرفع عينيه ، وخفضهما على الفور ، وكل الدم الذي بدا محتقناً في بقعة تحت حلقه اندفع إلى وجهه وعينيه . ولم يستطع أن يأخذ نَفَسه .

قال لافروشكا :

— ولم يدخل الغرفة إلا الملازم ، وأنتما . لابد أنه هنا في مكان ما .

فهتف دينيزوف فجأة ، وقد احتقن وجهه ، واندفع إلى الرجل بحركة وعيد :

— أنتَ يا دمية الشيطان . إصحَ وابحث عنه ..! فاذا لم تعثر على الكيس جلدتك ، سأجلدكم جميعاً .

وأخذ روستوف يزرر جاكتته ، وعيناه تتحاميان دينيزوف ، ووثّق إبزيم سيفه ، ولبس قبعته .

وصاح دينيزوف ، وهو ينفض مراسلته من كتفيه ، ويخبطه بالحائط :

— يجب أن أجد هذا الكيس ، أقول لك .

قال روستوف متجهاً إلى الباب دون أن يرفع عينيه :

— دعه يا دينيزوف وشأنه . أنا أعرف مَنْ أخذه .

فأقصر دينيزوف ، وتفكّر لحظة ، ووضح أنه فهم ماذا يومىء إليه روستوف ، فأمسك بذراعه .

وهتف ، وقد بزرت كل شرايين جبهته وعنقه ، كالحبال :

— كلام فارغ . . ! أنت مجنون أقول لك . لن أسمح بهـذا . الـكيس هنا .. ! سوف أسلخ هذا الوغد حيًّا ، وسوف يُعثر عليه .

فرد روستوف بصوتٍ غير ثابت :

— إننى أعرف من أخذه .

ومضى إلى الباب .

فهتف دينيزوف ، وقد اندفع إلى صف الضابط ليكفّه :

— وأنا أقول لك لاتجرؤ أن تفعل ..!

إلا أن روستوف جذَب ذراعه ، وثبّت عينيه على وجهه مباشرة ، بحزم ، وبغضب ، كما لو كان دينيزوف أعـدى أعدائه . وقال بصـوتٍ مرتجف :

— أتفهم ماذا تقول ؟ لم يكن غيره فى الغرفة إلاّى . فاذا لم يكن الأمر كذلك ، كان معنى ذلك ...

ولم يسعه أن يكمل ، وجرى خارجاً من الغرفة .

وكان آخر ما سمعه روستوف .

— آه ، يأخذك الشيطان أنت ، وكل الناس .

ذهب روستوف إلى بيت تليانين .

وقال له مراسلة تليانين :

— ليس السيد هنا . ذهب إلى القيادة العامة .

ثم استأنف ، وقد دهش لمرأى وجه صف الضابط المضطرب :

— أحَدَث شىء ؟

— لا ، لا شىء .

قال المراسلة :

— فاتك أن تجده بلحظة واحدة .

كانت القيادة العامة تقع على بعد ميلين من سالزنيك ، فأخذ روستوف حصاناً ، دون أن يعود للبيت ، وركب إليها . وكان فى القرية خان يتردد عليه الضباط . فركب إليه روستوف ، ورأى حصان تليانين عند الشرفة .

كان الملازم فى الغرفة الثانية من الخان ، جالساً إلى صحفة من السجق وزجاجة من النبيذ .

وقال باسماً وقد رفع حاجبيه :

— آه ، أنتَ جئتَ هنا أيضاً ؟! أيها الفتى ..!

فقال روستوف ، كما لو كانت الكلمة الواحدة كلفته مالا يطيق :

— نعم .

ثم جلس إلى أدنى مائدة .

وصمتا ، كلاهما . كان فى الغرفة ألمانيّان ، وضابط روسىّ . ولم يقل أحد شيئاً ، وكان كل ما يُسمع هو قعقعة السكاكين ، وصوت مضغ الملازم .

ولما أنهى تليانين غداءه ، أخرج من جيبه كيساً مزدوجاً ، وشدّ حلقاته إلى جنب ، بأصابعه االصغيرة البيضاء المستديرة ، إلى أعلى ، وأخرج إمبرياليا من الذهب ، وأعطاه للخادم وهو يرفع حاجبيه .

وقال :

— أسرع من فضلك .

كانت القطعة النقدية جديدة . ونهض روستوف ، وأقبل إلى تليانين .

وقال بصوتٍ خفيض لا يكاد يُسمع :

— اسمح لى أن أنظر فى كيس نقودك .

فأعطاه تليانين الكيس ، بعينين متأرجحتين ، ومازال حاجباه مرفوعين .

وقال ، وقد شحب لونه فجأة :

— نعم ، إنه كيس لطيف . نعم ، نعم ، أنظر إليه يافتى .

أخذ روستوف كيس النقود فى يده ، وفحصه ، وفحص مافيه من نقود، ونظر إلى تليانين كان الملازم يدير النظر حوله ، بطريقته المعتادة ، وبدا عليه الابتهاج البالغ فجأة ، وقال :

— إذا بلغنا ڤيينا فسوف أتخلص منه هناك ، أما فى هذه المدن الصغيرة البائسة ، فلا يوجد ثم ما تنفقه فيه . حسناً ، أعطنيه يافتى ، أنا ذاهب .

لم يتكلم روستوف .

فاستأنف تليانين :

— وأنت ؟ هل ستتناول غداءك أيضاً ؟ إنهم يطعمونك هنا بشكل لا بأس به بالمرة ، والآن أعطنيه .

ومد يده ليمسك بالكيس . فتركه روستوف يفعل . وأخذ تليانين الكيس وتركه ، بلا احتفال ، ينزلق فى جيب بنطلون الركوب ، وحاجباه مرفوعان ، وفمه مفتوح قليلا ، كما لو كان يقول : « نعم ، نعم ، إننى أضع كيس نقودى فى جيبى ، وهذا شىء بسيط جداً ، ولا شأن لأحد به . »

وقال متنهداً :

— حسناً يافتى ؟

ورمق عينى روستوف ، من تحت حاجبيه المرفوعين .

وانبثق شعاع ، كأنه من شرارة كهربائية ، من عينى تليانين إلى عينى روستوف ، وارتد راجعاً ، وارتد مرة أخرى ، فأخرى ، فى لحظة واحدة .

قال روستوف ، وهو يمسك بذراع تليانين ، ويوشك أن يجره إلى النافذة :

— تعال هنا .

وهمس ، فوق أذن تليانين مباشرة :

— هذه النقود نقود تليانين ، أنت أخذتها ...

فقال تليانين :

— ماذا ؟ ماذا ؟ كيف تجرؤ ؟ ماذا ..؟

على أن هذه الكلمات جاءت كأنها صيحة يائســـة يُرثى لها ، كأنها ضراعة للمغفرة . وما أن سمعها روستوف ، حتى انزاح عن كاهله عبء من الشك باهظ . وكان سعيداً . وأخذ في الوقت نفسه يرثى للرجل التعس الذي وقف أمامه . إلا أن المهمة التي بدأها كان ينبغي أن تتمّ .

وتمتم تليانين ، وقد خلع قبعته ، واتجه إلى غرفة صغيرة خاوية :

— الله أعلم ماذا قد يتصوّر الناس هنا . يجب أن نفسّر الأمور ..

قال روستوف :

— إنى أعرف ذلك ، وسوف أبرهن عليه .

— أنا ...

وأخذت كل عضلة فى وجه تليانين المفزّع ترتعش ، وعيناه ما تزالان تنتقـلان من جانب إلى جانب ، ولـكن ذلك بنظرة متجهة إلى أسفل ، لا ترتفع إلى وجه روستوف ، وسمعت شهقاته بالبكاء

— لا تخرب بيتى يا كونت . إننى صغير السن . . . هذه هى النقود التعِسة ، خذها ..

ورماها على المائدة .

— إنّ لى أباً وأماً شيخين ..!

فأخذ روستوف النقود ، وهو يتحـاشى عينى تليـانين ، وخرج من الغرفة دون كلمة . لـكنه وقف عند البـاب ، ورجع على عقبيـه ، وقال والدموع فى عينيه :

— يا إلهى .. كيف أمكنك أن تفعلها ؟

فقال تليانين مقترباً منه :

— يا كونت ..

فتراجع روستوف :

ـــ لا تلمسنى . خذ النقود إذا كنت تحتاجها .

ورمى إليه كيس النقود ، وخرج يجرى من الخان .

الفصل الخامس

فى تلك الليلة دارت مناقشة حامية بين ضباط الفصيلة فى بيت دينيزوف .

قال كابتن من أركان الحرب ، طويل القامة ، أشيب الشعر ، له شارب ضخم ، وفى قسمات وجهه العريضة غضون كثيرة :

ـــ وأنا أقول لك ياروستوف يجب أن تعتذر للكولونيل ..!

كان روستوف قانى الوجه من الانفعال .

كان كابتن الأركان ، كيرستين ، قد أنزلت رتبته إلى نفر ، مرتين ، لمسائل تتعلق بالشرف ، واستعاد رتبته مرتين .

فصاح روستوف :

ـــ لن أسمح لأحد بأن يدعونى كذاباً ..! قال لى أننى كنت أكذب ، فقلت له أنه هو الذى كذب ، واستقر الأمر عند هذا الحد . يستطيع أن يقينى فى الخدمة كل يوم ، أو يقبض علىّ ، ولكن أحداً لا يستطيع أن يحملنى على الاعتذار ، لأنه ، بوصفه قائد هذه الفرقة ، يرى أنه مما لا يليق بكرامته أن يسترضينى ، إذن ...

فقاطعه كابتن الأركان ، بصوته الأجش العميق ، وهو يربت شاربه بهدوء :

ـــ انتظر لحظة ياصاحبى العزيز ، واسمع .. أنت تقول للكولونيل ، فى حضور ضباط آخرين ، أن أحد الضباط قد سرق ...

ـــ لست ملوماً ، لأن الحديث بدأ فى حضور ضباط آخرين . وعساه لم يكن ينبغى لى أن أتكلم أمامهم ، لكنى لست دبلوماسياً . لذلك التحقت

بالفرسان ، وفى ظنى أن المرء هنا لايحتـاج للرهافة واللطف فى علاج الأمور . وهو يقول لى أننى أكذب ، فليقدّم لى ترضية ..

— طيب طيب ، ليس هناك من يظنك جباناً ، لـكن هذه ليست النقطة . اسأل دينيزوف ، عما إذا كان لا محل لأن يطلب صف ضابط الترضية من قائد فرقته ..؟

كان دينيزوف يجلس ، جهماً مربداً ، يعض شاربه ويصغى للحديث ، ولا رغبة لديه ، فيما هو واضح ، أن يشارك فيه . وأجاب على سؤال كابتن الأركان بهزة إنكار من رأسه .

واستأنف الـكابتن :

— أنت تتحدث إلى الـكولونيل عن هذه الشغلة القذرة أمام ضباط آخرين ، فيأمرك بوجدانيش بالسكوت .

كان بوجدانيش اسم الـكولونيل .

— لم يأمرنى بالسكوت ، بل قال أننى أقول غير الحق .

— حسناً ، فليـكن . وأنت قلت له كلاماً فارغاً كثيراً ، وعليك أن تعتـذر .

فهتف روستوف :

— لايمكن بأى حال ..!

فقال كابتن الأركان برصانة وصراحة :

— لم أكن أنتظر منك هذا . أنت لاتريد أن تعتذر ، ولـكن يارجل أنت لست ملوماً كل اللوم بالنسبة له وحده ، بل للفرقة كلها — كلنا . الحالة هى : كان ينبغى لك أن تتدبر المسألة ، وأن تطلب النصيحة ، لـكن لا ، تذهب ، فتـلقى كل شىء على مسمع من الضباط . فماذا كان على الـكولونيل أن يفعل ؟ أيحاكم الضابط ، ويلحق العار بالفرقة جميعاً ؟ يلحق العار بالفرقة جميعاً ، بسبب وغد واحد ؟ أهذا كيف ترى المسألة ؟

نحن لا نراها بهذا الشكل . وبوجدانيش كان مدهشاً : قال لك أنك تقول ما هو غير صحيح . ليس هذا لطيفاً ، ولـكن ما العمل يا صاحبي العزيز ؟ أنت أوقعت نفسك بنفسك . وعندما يريد المرء الآن أن يسوّى المسألة ، يحول شيء من غرور دونك وأن تعتذر ، وتريد أن تعلن الحـكاية كلها على الملأ . ويهينك أنك رددت شيئاً ما إلى الواجب ، ولـكن لم لا تعتذر لضابط شريف شيخ ؟ فهما كان من أمر بوجدانيش ، فهو كولونيل شيخ شجاع وشريف ..! سرعان ماتشعر بمساس لـكرامتك ، ولـكن لايهمك أن تلحق العار بالفرقة جميعاً ..!

وبدأ صوت كابتن الأركان يرتعش :

— لم يمض عليك وقت ما فى الفرقة يابنى ، أنت هنا اليوم ، وغداً سوف تعين ياوراً فى مكانٍ ما ، وبوسعك أن تفرقع بأصابعك إذ قيل : « إن بين ضباط باڤلوجراد لصوصاً ..! » لـكن الأمر عنـدنا ليس سواءً ..! ألست محقاً يادينيزوف ؟ ليس الأمر سواءً ..!

فبقى دينيزوف صامتاً ، ولم يأت بحركة ، لـكنه كان ينظر ، بين الحين والحين ، إلى روستوف ، بعينين سوداوين متألقتين .

واستأنف كابتن الأركان :

— أنت تقدر كرامتك شخصياً ، ولا تريد أن تعتذر ، لـكننا نحن القدامى الذين نشأنا فى الفرقة ، وسنموت فيها بمشيئة الله ، نحن نقدر شرف الفرقة ، ويعرف بوجدانيش ذلك . أوه .. نحن نقدره فعلا يا أخى! وذلك كله ليس سليماً ، ليس سليماً ..! تستطيع أن تغضب أولا تغضب ، لـكنى ألتزم جادة الحق دائماً ، ليس ذلك سليماً ..!

ونهض كابتن الأركان وابتعد عن روستوف .

فهتف دينيزوف واثباً :

— هذا صحيح ، والله ..! والآن روستوف ، والآن ..!

كان وجه روستوف يتضرج ويشحب بالتناوب ، وينظر إلى أحد الضابطين ثم إلى الآخر :

— لا ياسادة ، لا .. لايجب أن تظنوا ... إننى أفهم حق الفهم . أنتم مخطئون فى ظنكم هذا عنى ... أنا ... بالنسبة لى ... إننى ، فى سبيل شرف الفرقة ... آه ، طيب . سأثبت ذلك عملياً ، وشرف العَلَم ، بالنسبة لى ... حسناً ، لايهم ، صحيح أننى ملوم ، ملوم كل اللوم . حسناً ، ماذا تريدون أيضا ؟

فهتف كابتن الأركان مستديراً ، يخبط على كتف روستوف بيده الكبيرة :

— حسناً ، هذا حسن ، يا كونت . !

وهتف دينيزوف :

— إنه ولد مدهش أقول لك .

وقال كابتن الأركان ، وقد أخذ ينادى روستوف بلقبه ، كما لو كان ممتناً لاعترافه :

— هذا أحسن يا كونت . اذهب واعتذر يا صاحب السعادة . نعم ، اذهب .. !

فقال روستوف بصوت ضارع :

— سأفعل ياسادة أى شىء . لن يسمع أحد كلمة منى . لكنى لا أستطيع أن أعتذر . لا أستطيع والله ، مهما فعلتم .. ! كيف أذهب وأعتذر كصبى صغير يطلب العفو ؟

فأخذ دينيزوف يضحك .

وقال كيرستين :

— سيكون هذا أنكى عليك . إن بوجدانيش حقود وسوف تدفع ثمن عنادك .

— لا ، بشرفي ليس عناداً . . ! لا أستطيع أن أصف شعوري . لا أستطيع ...

فقال كابتن الأركان :

— حسناً ، كما تشاء .

ثم سأل دينيزوف :

— وماذا حدث لذلك الوغد ؟

فتمتم دينيزوف :

— بَلَّغ عن نفسه مريضاً ، وسوف يشطب غداً من القائمة .

وقال كابتن الأركان :

— هذا مرض . لا تفسير آخر .

فصاح دينيزوف ، بصوت متعطش للدماء :

— مرض أو غير مرض ، يحسن به ألا يعبر طريقي . وإلا قتلته ..!

وعندئذ دخل زيركوف الغرفة .

وهتف الضباط ملتفتين للقادم الجديد :

— ماذا أتى بك هنا ؟

— علينا أن نبدأ المعركة يا سادة ..! سلّم ماك ، بجيشه كله .

— ليس هذا صحيحاً . !

— رأيته بنفسي .!

— ماذا ؟ رأيت ماك الحقيق ؟ بيديه وقدميه ؟

— المعركة .. المعركة ..! هاتوا له زجاجة من الخمر على هذا الخبر ..! ولكن كيف جئت هنا ؟

— أُعدت إلى الفرقة بسبب هـذا الشيطان ماك . شكا مني جنرال نمسوي . كنت هنأته بوصول ماك . . ما الحكاية يا روستوف ؟ تبدو كما لو كنت قد خرجت على الفور من حمام سخن .

— أوه يا صاحبي العزيز ، نحن هذين اليومين الماضيين في ورطة هنا وجاء ياور الفرقة وأيد الأخبار التي أتى بها زيركوف . كانوا تحت الأوامر ، بالتقدم من الغد .

— سنذهب المعركة يا سادة ..!

— حسناً الحمد لله ..! فقد طال بنا الجلوس هنا . !

الفصل السادس

عاد كوتوزوف متجهاً إلى ڤيينا ، يدمر خلفه الجسور على نهرى إنْ (عندبرونو) ونراون (بالقرب من لينز) . وفي الثالث والعشرين من أكتوبر كانت القوات الروسية تعبر نهر إنس . وعند الظهر كانت المدفعية الروسية ، وقوافل الإمدادات والمعدات . وطوابير القوات ، تمر من وسط بلدة إنس ، على جانبي الجسر كليهما .

كان يوماً من الخريف ، دافئاً ، مطيراً . وكان البراح الممتد الفسيح المفتوح أمام المرتفعات التي قامت عليها البطاريات الروسية تحرس الجسر ، تنسدل عليه أحياناً ستارة شفّة من المطر الجانح ، ثم ينبسط فجأة في ضوء الشمس ، ويتاح للأشياء النائية البُعد أن ترى بوضوح ، تتألق كما لو كانت حديثة العهد بالصقال . وكانت البلدة الصغيرة ، تحت ، يمكن أن ترى ، ببيوتها البيضاء ، المسقوفة بالأحمر ، وكاتدرائيتها ، وجسرها الذى تتدفق على جانبيه حشود متما كبة من القوات الروسية . واستبانت عند منحنى الدانوب سفن ، وجزيرة ، وقلعة لها منتزه تحدق به المياه من ارتفاد الدانوب والإنس ، وضفة الدانوب اليسرى الصخرية تكسوها غابات الصنوبر ، ولها أرضية سحرية كأنها شيء صوفى غيبي ، من ذؤابات الشجر الخضراء ، ومخانق الجبال المزرقّة . وكانت أبراج دير تقوم من وراء غابة عذراء بريّة من الصنوبر ، وكان بالوسع تبيُّن دوريات فرسان العدو ، بعيداً على الجانب

الآخر من الإنس .

وقف الجنرال قائد المؤخرة ، بين مدافع الميدان على منكب التل ، مع أحد ضباط الأركان ، يتفحص المنطقة من خلال منظار الميدان . وكان نسفيتسكى ، وقد أرسله القائد العام إلى جناح المؤخرة ، يجلس إلى الوراء منهما قليلا ، على مؤخرة عربة مدفع . وكان القوزاقى الذى يرافقه قد ناوله جرابندية وزجاجة ، وكان نسفيتسكى يدعو بعض الضباط إلى فطائر و « دوپل — كوميل » أصلى . فتحلق حوله الضباط بسرور ، وركع بعضهم على ركبتيه ، وقعد البعض الآخر القرفصاء ، بالطريقة التركية ، على العشب المبلول .

كان نسفيتسكى يقول :

— نعم ، لم يكن الأمير النمسوى الذى بنى هذه القلعة بالغبى . إنه مكان عظيم ..! لماذ لاتأكلون ياسادة ؟

فأجاب أحد الضباط ، وقد أسعده أن يتحدث إلى ضابط من الأركان بمثل هذا الخطر :

— شكراً جزيلا أيها الأمير . إنه مكان بديع ..! مررنا بالقرب من المتنزه ورأينا غزالتين ... وياله من بيتٍ فخم ..!

وقال آخر، كان ليود جداً أن يأخذ فطيرة أخرى ، لكنه كان خجلا ، ومن ثمّ فقد تظاهر أنه يتفحص المشهد الطبيعى :

— أنظر أيها الأمير . انظر ، إن مشاتنا قد وصلوا بالفعل هناك . أنظر هناك فى المراعى خلف القرية ، ثلاثة منهم يجرّون شيئا .

ثم قال بتحبيذ واضح :

— سوف ينهبون تلك القلعة .

فقال نسفيتسكى :

— بالفعل .

ثم أضاف وهو يمضغ فطيرة ، فى فمه القسيم المبلل الشفتين :

— لا ، لـكنى كنت لأود أن أتسلل إلى هناك .

وأشار ، بابتسامة ، إلى دير الراهبات وأبراجه، وضاقت عيناه ، ولمعتا .

— ذلك ليكون مدهشاً ياسادة ..!

فضحك الضباط .

— لا لشىء إلا لنغوى الراهبات قليلا . يقولون أن بينهن فتيات إيطاليات . إننى بشرفى أدفع خمس سنوات من عمرى فى ذلك ..!

قال أحد الضباط الأكثر جسارة ، ضاحكا :

— ولابد أنهن يشعرن بالملل أيضاً .

وفى تلك الأثناء أشار ضابط الأركان الذى يقف إلى الأمام ، يلفت نظر الجنرال إلى شىء ما ، فنظر الجنرال إليه من منظار الميدان .

قال الجنرال بغضب ، وهو ينزل المنظار ، ويهز كتفيه .

— نعم ، هذا صحيح ، هذا صحيح ، هذا صحيح ! سوف تطلق عليهم النار عند العبور ، ولماذا يتسكعون هناك ؟

كان العدو يمكن أن يرى ، على الجانب الآخر ، بالعين المجردة ، وارتفعت من بطاريته سحابة فى بياض اللبن . ثم جاء دوىّ طلقة بعيد وكان من الممكن أن ترى قواتنا تسرع إلى موقع العبور .

نهض نسفيتسكى وهو ينفخ ، وذهب باسماً إلى الجنرال . وقال :

— أتحب سعادتك شيئاً منعشاً صغيراً ؟

فقال الجنرال دون أن يرد عليه :

— هذا لا يحسُن . فقد أضاع رجالنا الوقت .

فسأل نسفيتسكى :

— ألا يحسن بى أن أركب إليهم يا صاحب السعادة ؟

فأجابه الجنرال :

— نعم من فضلك .

وكرّر الأمر الذى كان قد أصدره من قبل بالتفصيل :

— وقل للفرسان أن عليهم العبور فى آخر الأمر ، وأن يحرقوا الجسر كما أمرت . ويجب أن يعاد التفتيش على المواد القابلة للالتهاب التى على الجسر .

فأجاب نسفيتسكى :

— حسن جداً .

ونادى القوزاقىّ الذى كان يمسك حصانه ، وأمره أن يحتفظ بالجرابندية والزجاجة ، وطوّح بشخصه الثقيل ، فى يسر ، إلى السرج .

وقال للضباط الذين كانوا يرقبونه باسمين ، وهو يركب متخذاً الممر المتعرج المنحدر على التل :

— سأذهب حقاً أزور الراهبات .

قال الجنرال ملتفتاً إلى ضابط مدفعية :

— والآن دعنا نرى إلى أى بُعد تصل يا كابتن . فلنتسلّ قليلا لننفق الوقت .

فأصدر الضابط أمره :

— طاقم المدافع . . إلى مدافعكم . . !

وجاء الرجال ، فى لحظة ، يجرون بمرح ، من جنب النيران التى أوقدوها ، وأخذوا يشحنون المدافع .

وجاء الأمر :

— واحد . . !

فقفز رقم واحد ، نشطاً ، إلى جنب . ودوّى المدفع بزئير معدنىّ يصمّ الآذان ، وطارت قنبلة تصفر فوق رؤوس جنودنا ، تحت التل ، وسقطت قبل أن تبلغ العدوّ بكثير ، وظهر دخان قليل فى البقعة التى انفجرت عندها .

وأشرقت وجوه الضباط والجنود لذلك الصوت. ونهض الجميع وأخذوا يرقبون حركات جنودنا تحت واضحة جلية كما لو كانت على مرمى حجر ، وحركات العدوّ الذى يقترب ، على مسافة أبعد . وفى تلك اللحظة بالذات طلعت الشمس باهرة ، تماماً ، من خلف السحب ، وامتزج صفاء صوت طلقة المدفع الواحدة ، بسطوع ضوء الشمس الباهر، فى أثرٍ واحد يهيج به خفة وجسارة .

الفصل السابع

كانت طلقتان من طلقات العدو قد انطلقتا ، بالفعل ، من فوق الجسر ، حيث اشتد الزحام والتناكب . وكان الأمير نسفيتسكى يقف فى منتصف الجسر ، وكان قد نزل من فوق جواده ، وانحشر جسمه الضخم بإزاء قضبان السور . ونظر ضاحكاً إلى الخلف ، إلى القوزاقىّ الذى كان يقف وراءه ببضع خطوات يمسك بالحصانين من لجاميهما . وكلما حاول الأمير نستيفسكى أن يتحرك ، دفعته الجنود والعربات إلى الخلف ثانية ، وضغطته إلى السور وكان كل ما بوسعه أن يبتسم .

قال القوزاقى لجندى من جنود حرس المهمات ، كان يدافع أمامه المشاة الذين تزاحموا جميعاً حول عرباته وخيله :

— يا لك من رجل يا صاحبي ..! يا لك من رجل ..! لا تستطيع أن تنتظر لحظة ..! ألا ترى أن الجنرال يريد المرور ؟

أما جندىّ المهمات فلم يلق بالا إلى كلمة « الجنرال » ، وهتف بالجنود الذين كانوا يسدّون عليه السبيل :

— هيه .. أنتم يا أولاد ..! إلى اليسار ..! انتظروا لحظة .

ولكن الجنود قد ازدحموا ، كتفاً إلى كتف ، وقد اشتبكت حراب بنادقهم ، كانوا يتحركون على الجسر، فى حشدٍ وثيق كثيف . ونظر الأمير

نسفيتسكي من فوق السور فرأى أمواج الإنس السريعة الصغيرة اللجبة ، تغرغر وتدوّم حول أعمدة الجسر، وتجرى متدافعة . ونظر إلى الجسر فرأى كذلك موجات حية متشابكة من الجنود ، أشرطة الكتف ، وقبعات ، وجرابنديات ، وحراب ، وبنادق طويلة ، وتحت القبعات وجوه عريضة عظام الوجنات ، وخدود متهضّمة ، ونظرات مرهقة خابية ، وأقدام تتحرك فى الطين اللزج الذى يكسو خشب الجسر . وفى بعض الأحيان ، من خلال موجات العساكر الرتيبة ، كندفة من الزبد الأبيض على أمواج الإنس ، كان يشق طريقه ضابط فى عباءة ، وجهه من طراز يغاير وجوه العساكر ، وفى أحيان أخرى ، كنشارة خشب تدوّم فى النهر ، تحمل أمواج المشاة فارساً يسير على قدميه ، أو عسكرى مراسلة ، أو رجلا من أهل البلد ، وأحياناً ، كأنها جذع خشبي يطفو على وجه النهر ، تأتى عربة مهمات للضباط ، أو عربة مهمات لفصيلة من الفصائل ، وقد تكوّمت فوقها كومة عالية من المعدات ، يغطيها غطاء من الجلد ، وقد أحيط بها من كل جانب .

قال القوزاقى يائساً :

— كما لو كان قد انفجر سد للمياه . أبقى منكم الكثير بعد ؟

فأجاب جندى يرتدى جاكتة ممزقة ، وهو يغمز متماجناً :

— مليون إلا واحد ..!

ومرّ ، يتبعه آخر : رجل عجوز . .

قال الجندى العجوز إلى زميل له ، بتشاؤم مقبض :

— لو أنه (كان يقصد العدو) بدأ يفرقع قنابله على الجسر الآن ، فسوف تنسى أن تهرش جلدك .

ومرّ الجندى ، وجاء خلفه آخر يجلس على عربة .

وقال جندي مراسلة ، وهو يجرى خلف العربة ، ويبحث بارتباك ، في مؤخرتها :

ـــ أين دُفع بأشرطة السيقان ، بحق الشيطان ؟

ومرّ هو أيضاً ، مع العربة . ثم جاء بعض الجنود مبتهجين مرحين . كانوا فيما هو واضح ، قد شربوا .

وقال جندي ، رفع معطفه الكبير إلى أعلى ، بمرح ، وهو يشوّر بذراعه بحركة عريضة :

ـــ ثم أعطاه ضربة يا صاحبي على فمه ، بمؤخرة بندقيته . .

وأجاب آخر ، بضحكة عالية :

ـــ نعم ، كان الجبون لذيذا ...

ومروا ، كذلك ، فلم يعرف نسفيتسكى مَنْ ضُرب على فمه ، ولا ما كان شأن الجبون .

قال شاويش غاضباً لائماً :

ـــ رباه . . أنظر كيف يهرولون . إنه يطلق قنبلة فيظنون أنهم سيُقتلون جميعاً .

وقال جندي شاب ، له فم واسع مشدوق ، لا يكاد يتمالك من الضحك :

ـــ ولما طارت جانبي ، يا أبي ، القنبلة يعنى ، أحسست أنني أموت من الخوف ، وبشرفي ، خفْت ذلك الخوف .

كما لو كان يتباهى بخوفه .

ومرّ ذلك أيضاً . ثم جاءت عربة لا تشبه أي عربة مما مرّ من قبل . كانت عربة ألمانية ، ولاح أنها محملة بملء دار من الأشياء . وكان موثقاً بالعربة من خلف ، بقرة حسنة ، ملجمة ، كبيرة الضرع . وكان يجلس على بعض حشيّات من الريش ، على العربة ، امرأة وطفل رضيع ، وامرأة عجوز ، وبنت ألمانية بادية الصحة وجنتاها حمراوان وضيئتان . كان هؤلاء

اللاجئون قد سُمح لهم بالمرور ، فيما يظهر ، بإذن خاص. والتفتت عيون الجنود جميعاً إلى النساء ، وبينما كانت العربة تمرّ ، بسرعة السير على القدم ، كانت تعليقات الجنود جميعاً تنصب على المرأتين الشابتين . وكانت الوجوه جميعاً تحمل نفس الابتسامة تقريباً ، وتنمّ عن أفكار غير لائقة ، تدور حول المرأتين .

— أنظر ، حتى السجق الألمانى يمرّ أيضاً ..!

وقال جندىّ آخر للألمـانى الذى كان يسرع ناشطاً خافض العينين ، غاضباً وخائفاً :

— بِعْ لى الستّ ..!

— انظر كيف حلّتْ نفسها ..! يا للشياطين ..!

— اسمع يا فيدوتوف ، كان ينبغى أن تسكن عندهم ..!

— رأيت مثل ذلك وأحسن ، من قبل يا صاحبى ..!

وسأل ضابط مشاة . وكان يأكل تفاحة ، وهو يبتسم كذلك نصف ابتسامة ، إذ ينظر للبنت الوسيمة :

— أين تذهبون ؟

فأغمض الألمانى عينيه ، يعنى أنه لم يفهم .

قال الضابط وهو يعطى البنت تفاحة :

— خذيها إذا أحببت .

فابتسمت البنت وأخذتها . ولم يرفع نسفيتسكى عينه من على النساء حتى مررن شأن شأنه سائر الرجال على الجسر . فلما عبروا تبعهم نفس التيار المنساب من الجنود ، يتحدثون بنفس الأحاديث ، ثم وقف الجميع فى النهاية . وكما يحدث غالباً ، حرنت أحصنة عربة المهمات فى طرف الجسر ، واضطر الحشد جميعاً أن ينتظر .

قال الجنود :

— ولماذا يقفون ؟ ليس هناك نظام ..!

وقالت أصوات متباينة ، فى الزحمة ، والجنود ينظرون إلى بعضهم البعض ، ويتدافعون جميعاً نحو مخرج الجسر :

— إلى أين تذهب عليك اللعنة ؟ ألا تستطيع أن تنتظر ؟ ستسوء الحال لو أنه أحرق الجسر . أنظر ، هنا ضابط محشور أيضاً .

وكان نسفيتسكى ينظر إلى مياه الإنس تحت الجسر ، حين سمع فجأة صوتاً ، حديداً عليه . لشىء يقترب بسرعة ... شىء ضخم ، طس فى الماء .

وقال جندى قريب ، بصرامة ، وهو ينظر حواليه عند سماعه هذا الصوت :

— أنظر إلى أين يصل ..!

وقال آخر ، فى غير ارتياح :

— يشجعنا على المرور أسرع .

— وتحرك الحشد ثانية . وأدرك نسفيتسكى أنها كانت قنبلة مدفع . فقال :

— هيه ، يا قوزاقى ... هات الحصان ..! أنت هناك . ! أبعد عن الطريق ..! أفسح الطريق ..!

واستطاع ، بمشقة كبيرة ، أن يصل إلى حصانه ، وأخذ يهتف دون أن يكف ، وهو يتحرك للأمام . وتضاغط الجنود ليفسحوا له السبيل ، لكنهم كانوا يتدافعون ثانية إليه ، حتى كانوا يضغطون على ساقيه ، ولم يكن أولئك الأقرب إليه بالملومين ، فقد كانوا هم أنفسهم يتزايد عليهم الضغط من وراء .

وجاء صوت خشن من خلفه :

— نسفيتسكى ، نسفيتسكى . . أنت يا رأس الثور ..!

فنظر نسڤيتسكى حوله ، ورأى على نحو خمسة عشر خطوة منه ، يفصله عنه حشدٌ حىّ متحرك من المشاة ، ڤاسكا دينيزوف ، محمراً ، ملبدّ الشعر ، ولا قبعة على مؤخرة رأسه السوداء ، وعباءته مدّلاة ، بأناقة ، من على كتفه .

كان دينيزوف ، فى سورة بادية من الغضب ، وعيناه السوداوان فى لون الفحم ، بإنسانيهما محتقنين بالدم ، تتألقان وتدوران وهو يلوّح بسيفه المغمد فى القراب ، بيده العارية الصغيرة ، حمراء فى احمرار وجهه ، يهتف :

— قل لهؤلاء الشياطين ، هؤلاء الأبالسة ، أن يتيحوا لى أن أمرّ ..!

فأجاب نسڤيتسكى مبتهجاً :

— آه ، ڤاسكا ..! مالك ؟

فصاح ڤاسكا دينيزوف :

— الفصيلة لا تستطيع أن تمرّ .

وهو يبدى أسنانه البيضاء بشراسة ، ويهمز حصانه العربى الأصيل الذى كانت أذناه تنتفضان إذ تمسهما حراب البنادق ، وينخر ، ويطسّ زبداً أبيض من شكيمته ، ويدقّ خشب الجسر بسنابكه ، على استعداد فيما هو واضح أن يثب من على السور لو تركه راكبه يفعل ..

وهتف دينيزوف ، وهو يسلّ سيفه فعلا من قرابه ويشهره :

— ما هذا ؟ كالغنم هم ..! بالضبط كالغنم ..! أفسح السبيل ..! دعنا نمر أنت أيها الشيطان الذى معك العربة ..! سأمزقك بالسيف ..!

فتزاحم الجنود ، بوجوه مفزّعة ، ولحق دينيزوف بنسڤيتسكى .

قال نسڤيتسكى عندما ركب إليه الآخر :

— كيف حدث أنك اليوم لست سكران ؟

فأجاب ڤاسكا دينيزوف :

— لا يعطون الواحد وقتاً ليسكر حتى ..! ويظلون يشدّون الفيلقة

هنا وهناك طول النهار . ! إذا كانوا ينوون الحَيْبَ ، فلنحايب . ولكن الشيطان يعْيف ما هذا ..!

وقال نسفيتسكى ، وهو ينظر إلى عباءة دينزوف الجديدة ، وفرش سرْجه الجديد :

— يا لك اليوم من متأنق ..!

فابتسمَ دينزوف ، وأخرج من جيب قراب السيف منديلا أشاع رائحة عطر ، ووضعه إلى أنف نسفيتسكى :

— بالطبع . فأنا ذاهب للمعْرَكة ..! حلَقْتُ ، ونظفتُ أسنانى ، وعطّرْتُ نفسى ..!

كان من أثر قامة نسفيتسكى المهيبة ، وخلفه تابعه القوزاقى ، وعزم دينزوف الذى أشهر سيفه وأخذ يهتف فى سوْرة مجنونة ، أنهما بلغا أن يشقا طريقهما إلى الجانب الآخر من الجسر ، وأوقفا المشاة . ووجد نسفيتسكى ، بجانب الجسر ، الكولونيل الذى كان عليه أن يسلم له الأمر الصادر إليه ، وبعد أن فعل ، ركب عائداً .

وقف دينزوف عند طرف الجسر بعد أن أفسح السبيل . كان يمسك فى غير احتفال بفرسه الذى كان يصهل وينكت الأرض ، فى لهفةٍ للحاق بزملائه ، وأخذ يرقب الفصيلة تقترب . ثم دوت قعقعة السنابك على خشب الجسر ، كما لو كانت سنابك خيل كثيرة تعدو ، وامتدت صفوف الفصيلة عبر الجسر الضباط فى المقدمة والجنود فى صفوف من أربعة ، وبدأت الفصيلة تخرج من طرف الجسر .

أما المشاة الذين كانوا قد أوقفوا ، فقد تزاحموا بالقرب من الجسر ، فى الطين الذى وطئته الأقدام ، وأخذوا يحدّقون إلى الفرسان الذين كانوا يمرون بهم فى نظام سوىّ ، بأناقتهم ونظافتهم ، ويخامر المشاة ذلك

الشعور الخاص من سوء الطوية والغربة والسخرية الذى تلتق به عادة أسلحة الجيش المختلفة .

قال أحدهم :

— يا لرشاقة الأولاد ..! لا ينفعون إلا فى الاحتفالات ..!

وقال آخر :

— ما فائدتهم ؟ إنهم يقودونهم هنا وهناك للاستعراض فحسب ..!

وقال أحد الفرسان مازحاً عند ما تبختر حصانه فطسَّ بعض المشاة بالطين :

— أنتم يا مشاة ، لا تثيروا التراب ..!

فقال أحد المشاة وهو يمسح الطين بكمه من على وجهه :

— وددتُ لو أنك سرت يومين بالجرابندية..! أشرطتك الحلوة هذه ستبلى قليلا . جاثمٌ هناك فوق ، أنت كالعصفور ، لا كالرجال .

فقال أومباشى ، يعابث جندياً نحيلا صغير القامة ، قد ناء منحنياً تحت ثقل جربنديته :

— زيكين ، حقهم يحطونك على حصان . وسوف يكون شكلك عظيما هناك .

وهتف جندى الفرسان :

— ضع عصا بين ساقيك ، سيناسبك هذا بدلا من الحصان ..!

الفصل الثامن

عبر الجسر آخرُ المشاة ، متزاحمين وهم يقتربون منه ، كما لو كانوا يمرون من قمع . وفى النهاية كانت عربات المهمات قد مرَّت جميعاً ، وخف التزاحم ، وجاءت آخر سرية إلى الجسر . ولم تبق إلا فصيلة دينيزوف من الفرسان على الجانب البعيد من الجسر ، تواجه العدو الذى كان بالوسع

رؤيته من التل" ، على الضفة الأخرى ، لـكنه لم يكن قد ظهر بعد بحيث يُرى من الجسر، ذلك أن الأفق ، لم يكن يرى ، من الوادى الذى ينساب فيه النهر ، إلا على مرتفع من الأرض يقع على مسافة نصف ميل . وكانت تمتد تحت سفح التل" أرض خواء تتحرك عليها جماعات قليلة من جنود طلائعنا والقوزاقين . ثم رؤيت ، فجأة ، فى الطريق على ذروة الأرض المرتفعة ، مدفعية وقوات فى حال زرقاء . كان أولئك الفرنسيين .

وتراجعت طائفة من الطلائع القوزاقيين منحدرين التل خبباً . وعلى أن ضباط فصيلة دينزوف ورجالها ، جميعاً ، عالجوا أن يتكلموا فى موضوعات أخرى ، وأن ينظروا إلى وجهات أخرى ، فلم يكن يشغل فكرهم إلا ما يجرى هناك على ذروة التل ، وما فتئوا ، دون أن يكفوا لحظة ، ينظرون إلى البقع التى تبدو على حافة الأفق ، وهم يعرفون أنها قوات العدو . وكان الجو قد عاد إلى الصفاء ، منذ الظهر ، والشمس تغرب ساطعة على الدانوب، والتلال المعتمة حواليه . كان الهدوء سائداً ، وكان بالوسع ، بين الحين والحين ، سماع نداءات النفير والصيحات ، من ناحية العدو . ولم يكن هناك بين الفصيلة والعدو إلا بضع جنود متناثرين، مهمتهم مناوشة العدو . كان كل ما يفصل بينهما أرض فراغ من نحو ستمائة متر . وكف العدو عن إطلاق النار . فازداد وضوح الاحساس بذلك الخط الصارم المتهدد ، لا يُدرك ولا يُنال ، يفرق جيشين متعاديين .

«خطوة واحدة فيما وراء هذا الخط الفاصل الذى يشبه الخط الفاصل بين الأحياء والموتى ، وهناك زعزعة اليقين ، والمعاناة ، والموت . فماذا هناك ؟ ومن هناك ؟ — هناك خلف ذلك الحقل ، تلك الشجرة ، ذلك السقف الذى تسطع عليه الشمس ؟ لا أحد يدرى ، ولـكن الواحد يحب أن يعرف . أنت تخشى ، وتتوق ، أن تعبر ذلك الخط ، وأنت تعرف أن عليك عبوره ، إنْ آجلا أوعاجلا ، وعليك أن تتبين ما هناك ، كما أن

عليك ، حتماً ، أن تعرف ماذا يقع على الجانب الآخر من الموت . ولكنك ملىء بالصحة والقوة والبهجة ، والانفعال ، ويحيط بك مثلك من الرجال الأصحاء يهيجهم الانفعال والحيوية . »

هذا ما يفكر فيه ، أو يستشعره على أى حال ، كل من يقع نظره على العدو ، وهذا الشعور يكسب كل ما يحدث فى تلك اللحظات ، مجداً باهراً ، وحدة وضّاءة مشرقة .

ارتفع دخان مدفع على المرتفع الذى كان يشغله العدو ، وانطلقت قنبلة تصفر فوق رءوس فصيلة الفرسان . وكان الضباط يقفون معاً ، فتفرقوا راكبين إلى مواقعهم . وأخذ جنود الفرسان يَصُفّون جيادهم فى عناية . وخيّم الصمت على الفصيلة كلها . وكانوا جميعاً ينظرون إلى العدو أمامهم ، وإلى قائد الفصيلة ، فى انتظار كلمة الأمر . وانطلقت إلى جانبهم طلقة مدفع ثانية ، فثالثة : كان واضحاً أنهم يطلقون المدافع على الفرسان ، لكن القنابل كانت تطير ، وهى تصفر صفيراً سريعاً ، ذا إيقاع خاص ، فوق رؤوس الفرسان ، وتهبط فى مكان ما وراءهم . ولم ينظر الفرسان حولهم . ولكن جنود الفصيلة كلها ، عند سماع صوت كل طلقة ، كما لو كانت تلك كلمة أمر . كانوا يرتفعون فى ركاب السروج ، بصفوف الوجوه التى ما أشد تشابهها ، وما أشد تغايرها مع ذلك ، يحبسون أنفاسهم إذ تمر الطلقة ، ثم يهبطون ثانية . كان الجنود ، دون أن يديروا رءوسهم ، يرمقون أحدهم الآخر ، متطلعين لمعرفة شعور زملائهم . وكانت الوجوه جميعاً ، من دينيزوف حتى نافخ النفير ، تتخذ مظهراً حول الذقن والفم ، ينم عن تعبير مشترك من الصراع ، والغيظ ، والانفعال ، وكان الشاويشية عابسين ، ينظرون إلى الجنود كما لو كانوا يتوعدونهم بالعقاب . وكان صف الضابط ميرونوف ينحنى وينغض رأسه كلما انطلقت قنبلة . وكان روستوف ، فى الجناح الأيسر ، ممتطياً صهوة « الغراب » — وهو حصان وسيم رائع ،

بالرغم من ساقه العرجاء — وتبدو عليه سعادة التلميذ الذى دُعى أمام العديد من الشهود ليؤدى امتحاناً يحس بالثقة فى أنه سيبرّز فى أدائه . وكان يرمق الجميع بنظرة صافية وضاءة ، كما لو كان يطلب منهم أن يلحظوا كيف كان هادئاً تحت وابل النيران . ولكنه بالرغم منه ، كان هناك على وجهه نفس الدلالة على شىء جديد قاسٍ ، تنم عنه أركان الفم .

وهتف دينيزوف :

— من ذا الذى ينحنى هناك ؟ صف ضابط ميرونوف . . ! لايصح هذا . .! انظر إلى . .!

لم يكن دينيزوف يطيق البقاء فى بقعة بعينها ، فظل يُدير حصانه أمام الفصيلة .

كان ڤاسكا دينيزوف يبدو تماماً بمظهره المألوف ، بوجهه الأسمر الأفطس الأنف ، وشعره الأشعث ، وقامته القصيرة الوثيقة البنية ، ويده المفتولة الشعراء ، وأصابعه الغليظة التى يمسك بها مقبض سيفه العارى — وبخاصة مظهره المألوف قرابة المساء ، عندما يكون قد أفرغ زجاجته الثانية ، إلا أنه كان أشد احمراراً من المألوف ، وكان رأسه مدفوعاً به إلى الخلف . كالطيور عند ما تشرب ، فينخس مهمازيه بلا رحمة فى جنبىّ حصانه الطيب بيدوين ، وهو جالس كما لو كان يقع إلى الوراء على السرج ، ثم عدا إلى الجناح الآخر من الفصيلة ، وصاح بالجنود فى صوت خشن أن ينظروا فى مسدساتهم . وركب إلى كيرستين . وجاء كابتن الأركان على فرسه الثابتة الخطو ، العريضة المتن ، تسير بخطى وئيدة ، ليلقاه . وكان وجهه ، بشاربه الطويل ، جاداً ، كدأبه دائماً ، إلا أن عينيه كانتا أشد تألقاً من المعتاد .

وقال لدينيزوف :

— حسناً ، كيف الحال ؟ لن يأتى الأمر إلى معركة . سوف ترى —

سوف نتراجع .

فتمتم دينزوف :

— الشيطان وحده يدرى ماذا ينوون .

ثم هتف ، وقد لاحظ وجه روستوف المشرق :

— آه .. روستوف ، ها قد حصلت على ماتريد فى النهاية .

وابتسم محبذاً ، وقد سرّه ، فيما هو واضح ، مظهر صف الضابط . وكان روستوف يحسّ سعادة كاملة . وعندئذ لاح القائد على الجسر . فعَدا إليه دينزوف :

— يا صاحب السعادة ..! دعنا نهاجمهم ..! سوف أرجعهم بعيداً .

فقال الكولونيل بصوته الملول السأمان ، وهو يزمّ وجهه كما ليطرد ذبابة مزعجة :

— نهاجمهم ، صحيح . . ! ولمَ تقفون هنا ؟ ألا ترى أن الجنود يتراجعوان ؟ قُدْ الفصيلة إلى الوراء .

عَبَرت الفصيلة الجسر ، وتجاوزت نطاق النيران دون أن تفقد رجلا واحداً . وتبعتها الفصيلة الثانية ، التى كانت فى الخط الأمامى، وبارح آخر القوزاق الجانب الأقصى من الجسر .

وبعد أن عبَرت فصيلتا بافلوجراد الجسر ، تراجعتا إلى التل، واحدة بعد الأخرى . وجاء قائدهما الكولونيل كارل بوجدانيش شوبيرت (١) إلى فصيلة دينزوف ، وكان يقود حصانه بسرعة المشى ، دون أن يجعل بالا إلى روستوف ، على أنهما كانا يلتقيان الآن للمرة الأولى ، منذ التقائهما

---

(١) روسى من أصل ألمانى ، وقد كان منهم الكثيرون فى الجيش الروسى . ويصوره تولستوى يتكلم روسية ركيكة جداً .

فيما يتعلق بحكاية تيليانين وكان روستوف يشعر أنه فى الجبهة، وأنه تحت رحمة رجل يسلّم الآن أنه كان مخطئاً فى حقه ، فلم يرفع عينيه من ظهر الكولونيل الرياضى ، ومؤخرة عنقه التى يكسوها شعر خفيف ، ورقبته المحمرّة . وخيل لروستوف ان بوجدانيش إنما يتظاهر بأنه لا يلاحظه ، وأن كل ما يهدف إليه الآن أن يختبر شجاعة صف الضابط ، فشدّ من قامته وأجال بصره حواليه فى مرح ، ثم خيل إليه أن بوجدانيش كان يركب بهذا القرب منه حتى يريه شجاعته . ثم خطر له بعد ذلك أن عدوه سوف يبعث بالفصيلة فى هجوم لا أمل منه — لا لشىء إلا ليعاقبه هو — روستوف . ثم تخيّل كيف أن بوجدانيش، بعد الهجوم ،كان ليأتى إليه وهو جريح ممدد على الأرض ، ويمد إليه ، فى كرم ، يد المصالحة .

وركب زيركوف ، إلى الكولونيل ، بقامته المرتفعة المنكبين التى يعرفها جنود بافلوجراد، فهو لم يترك فصيلتهم إلا منذ عهد قريب . ولم يكن زيركوف ، بعد أن طرد من القيادة العامة ، قد بقى فى الفصيلة ، وقال إنه ليس من الغباء بحيث يكد كالرقيق فى الجبهة ، بينما فى وسعه أن يحصل على جزاء أفضل ، بألا يفعل شيئا فى أركان الحرب ، واستطاع أن يلتحق كضابط مراسلة للأمير باجراتيون . وجاء الآن إلى رئيسه السابق بأمر من قائد جناح المؤخرة .

قال موجهاً الحديث إلى عدو روستوف ، بمظهر من الجدّ الرصين الكالح ، وهو يرمق زملاءه :

— هناك أمرٌ يا كولونيل بالوقوف ، وإحراق الجسر .

فسأل الكولونيل فى جهامة :

— أمرٌ لمن ؟

فأجاب حامل العَلم ، بنبرة جادة :

— لست أعرف أنا « لمن » . ولكن الأمير قال لى : «اذهب وقل

للكولونيل أن الفرسان يجب أن يعودوا بسرعة ويحرقوا الجسر ».

وجاء فى أعقاب زيركوف ضابطٌ من مرافقى القائد ، ركب إلى كولونيل الفرسان وأبلغه نفس الأمر . وجاء بعده نسفيتسكى ، ببدانته ، يعدو على حصان قوزاقى ، لايكاد يطيق ثقله . وصاح وهو يدنو :

— كيف هذا يا كولونيل ؟ قلتُ لك أن تحرق الجسر . وها قد ارتكب أحدهم خطأ . أنهم جميعاً لا يملكون أنفسهم هناك فوق ،ولايستطيع الواحد أن يتبين شيئاً ما .

فأوقف الكولونيل فصيلته ، فى تمهل متدبر ، والتفت إلى نسفتسكى وقال :

— تكلمت عن مواد قابلة للالتهاب . لكنك لم تقل شيئا عن إحراقها

فقال نسفيتسكى وهو يكبح حصانه ، ويخلع قبعته ، ويسوى شعره الذى بلله العرق ، بيده البضة :

— ولكن يا سيدى العزيز ، ألم أكن أقول لك أن تحرق الجسر بعد أن توضع المواد الملتهبة فى مواقعها ؟

— لستُ « سيدك العزيز » ، ياسيّد ضابط الأركان ، وأنت لم تقل لى أن أحرق الجسر ..! إننى أعرف الخدمة ، ومن عادتى أن الأوامر تطاع بدقة . أنت قلت أن الجسر سوف يحرق ، لكن مَنْ يحرقه ؟ لم أكن لأعرف هذا من الروح القُدُس ..!

فقال نسفيتسكى ملوحاً بذراعه :

— آه هذه هى الطريقة دائماً ..!

والتفت إلى زيركوف قائلا :

— كيف جئت هنا ؟

— فى نفس المأمورية . ولكنك غرقان فعلا ..! دعنى أعصرك .!

واستأنف الكولونيل فى لهجة مغضبة :

ـــ كنت تقول ياسيّد ضابط الأركان . .

فقاطعه ضابط القيادة العامة :

ـــ كولونيل ، يجب أن تسرع ، وإلا أحضر العدو مدافعه لاستعمال رصاص الرش .

فنظر الكولونيل صامتاً إلى ضابط القيادة، وضابط الأركان البدين ، وزيركوف ، وعبّس .

وقال فى نبرة رصينة ، كما ليعلن أنه بالرغم من كل ما أُلحق به من مضايقات ، فسوف يفعل الشيء الصواب :

ـــ الكوبرى سأحرقه ..

وضرب الكولونيل حصانه بساقية الفارعتين المفتولتين ، كما لو كان الحصان ملوماً على كل شيء ، وتحرك إلى الأمام ، وأصدر أمره إلى الفصيلة الثانية ، التى كان روستوف فيها ، تحت إمرة دينيزوف ، أن تعود إلى الجسر

قال روستوف لنفسه :

ـــ هاك بالضبط ما ظننت . إنه يريد أن يختبرنى .

وتقبّض قلبه ، واندفع الدم إلى وجهه . وخطر له :

ـــ فلْيَرَ ، ما إذا كنتُ جبانا ..!

ومرة ثانية ، عاد ذلك التعبير الجاد الذى بدا على الوجوه جميعاً فى الفصيلة ، عند ما كانت الفصيلة تحت النيران . وكان روستوف يرقب العدوّ الكولونيل ، رقابة دقيقة ، ليعثر فى وجهه على تأييد لافتراضه الخاص . لكن الكولونيل لم يرمقه ولامرة واحدة ، وكان يبدو كما يبدو دائماً فى الجبهة ، رصيناً صارما . ثم صدر الأمر

وردّدت أصوات كثيرة حواليه :

ـــ انتباه ..! انتباه ..!

ونزل الفرسان من على جيادهم متعجلين ، وسيوفهم تشتبك باللجم ،

ومهاميزهم تصلصل ، وهم لا يعرفون ماذا عليهم أن يفعلوا . كان الجنود يرسمون علامة الصليب على وجوههم . ولم يعد روستوف ينظر إلى الكولونيل ، فلم يكن لديه وقت . كان يخشى أن يتخلف عن الفرسان ، وبلغ من خشيته أن وقف قلبه عن الدق . وكانت يده ترتجف وهو يسلم حصانه لأحد جنود المراسلة ، وأحس الدم يندفع إلى قلبه ويخبطه . وركب دينيزوف إلى جانبه ، وتجاوزه وهو يستند إلى الوراء ، ويهتف قائلا شيئاً ما . ولم يكن روستوف يرى شيئاً إلا الفرسان يجرون حواليه من كل جانب والمهاميز تتشابك ، والسيوف تقرقع .

وهتفت أحدهم من خلفه :

— نقالات ..!

ولم يفكر روستوف فيمَ كان يعنى هذا النداء فى طلب النقالات ، ولم يكن يحاول الا أن يسبق الآخرين . ولكنه عند الجسر تماماً ، ولم يكن ينظر إلى الأرض ، اصطدم ببعض الطين اللزج الذى وطئته الأقدام ، وتعثر ، وسقط على يديه ، وتجاوزه الآخرون .

وسمع صوت الكولونيل الذى كان قد ركب فسبقهم ، وكبح حصانه بالقرب من الجسر ، بوجهٍ مبتهج ظافر ، يقول :

— على الجانبين يا كابتن .

ومسح روستوف يديه الوحلتين على ساقى بنطلونه ، ونظر إلى عدوه ، وهمّ بأن يجرى إلى الأمام ، وفى ظنه أنه كلما أبعد ذاهباً إلى الأمام حسُنَ ذلك . ولكن بوجدانيش ، دون أن ينظر إلى روستوف أو يتعرف عليه ، صاح به :

— منْ ذاك الذى يجرى فى وسط الجسر ؟

وهتف بغضب :

— يمينك ..! إرجع يا صف ضابط ..!

والتفت إلى دينيزوف، الذى ركب حتى خشب الجسر ، متباهياً بجرأته وقال :

— لماذا تتعرض للخطر يا كابتن ؟ يجب أن تنزل .

فقال ڤاسكا دينيزوف ، وهو يستدير على صهوة جواده :

— أوه .. لكل رصاصة صاحبها .

فى هذه الأثناء كان نسفيتسكى ، وزيركوف ، وضابط القيادة العامة يقفون معاً فى خارج نطاق الرصاص يرقبون ، تارة ، جماعة صغيرة من الرجال بقبعاتهم الاسطوانية الصفراء ، وجاكتاتهم الداكنة الاخضرار ، المطرزة بالأشرطة المضفورة ، وبنطلونات الركوب الزرقاء ، يتدفقون متزاحمين بالقرب من الجسر ، ثم يرقبون ما يدنو على البعد ، من الجانب الآخر — الحلل العسكرية الزرقاء وطوائف من الجند مع الخيل ، يسهل أن تتبيّن أنها المدفعية .

— أيحرقون الجسر ، أم لن يبلغوا ذلك ؟ من سيبلغه أولا ؟ أيبلغون الجسر ثم يحرقونه ، أم يصل الفرنسيون إلى نطاق الضرب بالرشّ ، ويقضون عليهم ؟

تلك كانت الأسئلة التى يسائلها نفسه ، دون اختيار وبقلب غائر ، كلُّ جندىّ من القوات التى كانت تقف على الأرض المرتفعة فوق الجسر ، وهو يرقب الجسر والفرسان فى نور المساء الناصع ، والحلل الزرقاء التى تتقدم من الجانب الآخر ، بحرابه بنادقها ، ومدافعها .

قال نسفيتسكى :

— أوه .. سيلقاها الفرسان حامية ..! إنهم الآن فى نطاق الضرب بالرشّ .

وقال ضابط القيادة :

— لم يكن ينبغى أن يأخذ هذه الكثرة من الجنود .

فأجاب نسفيتسكى :

— هذا صحيح . ولدان ذكيّان كانا ليصنعان الشغلة ..

فقال زيركوف ، وعيناه مثبتتان إلى الفرسان ، وإن كان مازال يتخذ ذلك المظهر الساذج الذى يستحيل معه أن يتبيّن المرء ما إذا كان يتكلم هذراً أو جِدًّا :

— آه يا صاحب السعادة ..! كيف ترى الأشياء ..! يرسل جنديين ؟ فمن يعطينا إذن نيشان ڤلاديمير ، والشريط ؟ ولكنهم الآن إذا لُسعوا ولهُوجوا بالفعل ، فلعل الفصيلة يُوصى بها للتكريم ، وعساه يحصل على شريط . صاحبنا بوجدانيش يعرف كيف تؤدى الأمور خير أداء .

قال ضابط القيادة :

— هاك ..! هذا رشٌّ ..!

وأشار إلى المدافع الفرنسية ، وكانت حواملها تنزع عنها فى تعجل .

وظهرت سحابة من الدخان على الجانب الفرنسى بين الجماعات التى تحيط بالمدافع ، ثم ظهرت سحابة ثانية ، وثالثة ، كلهما على التقريب ، فى الوقت عينه . وفى اللحظة التى سمعت فيها أول طلقة ، رؤيت سحابة رابعة . ثم طلقتان ، واحدة بعد الأخرى ، وثالثة .

فانبعث عن نسفيتسكى أنين ، كما لو كان فى قبضة ألم عنيف ، وهو يمسك ضابط القيادة من ذراعه :

— أوه . أوه ..! أنظر ..! سقط أحد الرجال ..! سقط ..! سقط ..!

— اثنان أظن .

قال نسفيتسكى مشيحاً بنظره :

— لو أنى القيصر ، ما دخلت الحرب أبداً .

وأعيد تعبئة المدافع الفرنسية فى تعجّل . وكان المشاة ، بحللهم الزرقاء ،

يتقدمون نحو الجسر جرياً . وكان الدخان يظهر ثانية ، فى فترات غير منتظمة ، ورصاص الرش يقرقع وينفجر على الجسر . لـكن نسفيتسكى لم يكن فى وسعه أن يرى الآن ما يحدث هناك ، إذ ارتفعت منه سحابة كثيفة من الدخان . فقد وُفق الفرسان فى إشعال النار فيه ، وكانت البطاريات الفرنسية تطلق عليهم النار الآن ، لا لتحول دونهم وذلك ، بل لأن المدافع قد سُدِّدت ، وهناك من يُطلـَق عليه النار .

وأتيح للفرنسيين الوقت أن يطلقوا رصاص الرش ثلاث دورات قبل أن يعود الفرسان لخيلهم . وكانت دورتان منهم غير صائبتى التوجيـه ، فذهبت الطلقات عالياً ، أما الدورة الثالثة فقد وقعت فى وسط طائفة من الفرسان ، وأسقطت منهم ثلاثة .

كان روستوف مستغرَق الانتباه بعلاقاته مع بوجدانيش ، وكان قد وقف على الجسر ، لا يدرى ماذا يفعل . لم يكن هناك من يضربه روستوف فيودى به — كما كان قد صوّر المعارك دائماً ، لنفسه — ولا كان باستطاعته أن يساعد فى إشعال النار بالجسر إذ لم يحضر معه ثمة قش للحريق كما فعل الجنود الآخرون . فوقف ينظر حواليه ، إذ سمع بغتة قرقعة على الجسر ، كما لو كان هناك من يكسر جَوْزاً ، وسقط أقرب الفرسان إليه على السور الحديدى ، وهو يئن . فجرى إليه روستوف مع الآخرين . وصاح أحدهم مرة أخرى :

— نقّالات ..!

وأمسك أربع رجال بالجندىّ الساقط ، وأخذوا يرفعونه .

صاح الجريح :

— أووو ..! دعونى وحدى ، من أجل المسيح ..!

لـكنه مع ذلك رُفع ووضع على النقالة .

أشاح نيكولاس روستوف ببصره ، كما لو كان يبحث عن شىء ما ،

وحدّق فى البُعد ، فى مياه الدانوب ، والسماء ، والشمس . شدّ ما كانت السماء تبدو جميلة ما أهدأها ، وما أعمقها ، وما أشد زرقتها . . ! وما أمجد الشمس الغاربة ، وأسطعها . . ! وشدّ ما كانت مياه الدانوب البعيدة تستضيء بلمعان ناعم رقيق . . ! وأجمل من ذاك الجبال الزرقاء النائية ، فيما وراء النهر ، ودير الراهبات ، والمهاوى الخفيّة الغامضة ، وغابات الصنوبر المقنعة بستار من الضباب ، حتى ذراها . . هنالك السلام والسعادة ... وخطر لروستوف : — لو اننى كنت هناك ، ما تمنيت شيئاً عدا ذلك . فما أكثر السعادة فى نفسى وحدها ، وفى نور الشمس هناك ، أما هنا . . . الأنين ، والمعاناة ، والخوف ، وهذا التعجل فى غير يقين من شىء .... هاك — هاهم يصيحون ثانيــة ، وهم جميعاً يجرون الآن راجعين إلى مكان ما ، وسأجرى معهم ، وهذا الشىء — الموت — هنا فوقى وحوالىّ ... لحظة واحدة ، ولن أرى الشمس أبداً بعد ذلك ، ولا هــذه المياه ، ولا هذا المهْوىَ فى الجبل . . !

وفى تلك اللحظة أخذت الشمس تستخفى خلف السحب ، وجاءت نقالات أخرى ، فرآها روستوف والخوف من الموت ، ومن النقالات ، وحب الشمس والحياة ، امتزجت كلها فى شعور واحد من الاهتياج الذى يخامر الأحشاء بالسقم والمياء .

وهمس روستوف :

— إلهنا وربنا . . ! الذى فى السماء ، انقــذنى ، سامحنى ، واشملنى بحمايتك . . !

جرى الفرسان عائدين إلى أولئك الذين كانوا يمسكون لهم جيادهم ، ورنّت أصواتهم أهدأ وأعلى نبرة ، وتلاشت النقالات من أمام العيون .

وهتف ڤاسكا دينيروف فوق أذنه مباشرة :

— كيف الحال ياصاحبي . ؟ هاقد شممت يا ئحة البا ُيورد . !

وتفكّر روستوف :

— انتهى كل شيء ، ولكنى جبان — نعم جبان ..!

وصعّد نفَساً عميقاً ، وأخذ «غراب» ، حصانه وكان يقف على ساقٍ واحدة ، من المراسلة ، وبدأ يمتطيه .

وسأل دينزوف :

— أكان ذلك رشّا ؟

فصاح دينزوف :

— نعم ، بالتأكيد ! اشتغلتم أنتم أحسن شغل ، بينما هذه شغلة قذرة ..! الهجوم عمل لطيف سار ..! تضرب الكلاب وتمزقهم ! لكن هذا الشغل ألعن شيء ، وهم يطلقون عليك النار كأنك هدف ثابت ..

وركب دينزوف إلى جماعة كانت قد وقفت بالقرب من روستوف ، تتكوّن من الكولونيل ، ونسفيتسكى ؛ وزيركوف ، وضابط القيادة .

وخطر لروستوف :

— حسناً ، يبدو أن أحداً لم يلحظ ..

وكان هذا صحيحاً . لم يلاحظ أحد شيئاً ما ؛ فقد كان الجميع يعرفون الاحساس الذى خامر صف الضابط ، لأول مرة ، تحت النيران

وقال زيروكوف :

— هذا شيء يُبلّغ عنه . وسوف ترى ما إذا كنت لا أرقّ إلى ملازم أول .

قال الكولونيل ، فى انتصار ومرح :

— بلّغ الأمير أن الجسر قد أحرقته أنا ..!

— فاذا سأل عن الخسائر ؟

قال الكولونيل بصوته الأجش :

— تافهة . جرحان من الجنود . ومات واحد .

وهو لا يملك أن يكاتم بابتسامة سعيدة ، وهو يلفظ عبارة : «ومات واحد» فى وضوح مستبين رنان .

الفصل التاسع

كان الجيش الروسى المكون من خمسة وثلاثين ألف رجل ، بقيادة كوتوزوف ، ينسحب على طول الدانوب ، فى تعجل ، يطارده الجيش الفرنسى المكون من مائة ألف رجل بقيادة بونابرت ، ويلقى سكاناً لا يكنون له وداً ، ويفقد ثقته فى حلفائه ، ويعانى من قصور الإمدادات ، ويساق إلى المعركة فى ظروف حرب لم ينتظر شيئاً يشبهها من أية ناحية ، فيقف حيث يلحقه العدو . ولا يقاتل إلا معارك خلفية فيما تقتضيه الضرورة الملحة حتى يسعه أن يتقهقر دون أن يفقد عتاده الثقيل . وكانت هناك معارك فى لامباك ، أمستتن ، وميلك . وبالرغم من الشجاعة والصبر على المكاره التى كان الروس يقاتلون بهما — وأقر لهم بها حتى الأعداء — فلم تكن النتيجة الوحيدة لذلك إلا تقهقراً متزايد السرعة . وكانت القوات النمسوية التى أفلتت من الأسر فى أولم ، ولحقت بكوتوزوف عند برونو ، قد انفصلت الآن عن الجيش الروسى ، وتُرك كوتوزوف مع قواته الضعيفة المنهوكة وحدها . ولم يعد الدفاع عن ڤيينا الآن موضوع تفكير . وفى محل الهجوم الذى أعدت خطته بعناية ، وفقاً لعلم الاستراتيجية الحديث وسلمها لكوتوزوف ، عند ما كان فى ڤيينا ، مجلسُ البلاط الحربى النمسوى ، كان هدفه الباقى الوحيد ، الذى لا يكاد يبلغه ، أن ينضم إلى القوات المتقدمة آتيةً من روسيا ، دون أن يفقد جيشه ، كما فقد ماك جيشه عند أولم .

وفى الثامن والعشرين من أكتوبر عبَر كوتوزوف وجيشه إلى الضفة

اليسرى من الدانوب ، واتخذ مواقعه ، للمرة الأولى ، يفرق النهر بينه وبين القوات الفرنسية الرئيسية . وفى الثلاثين هاجم فرقة مورتييه التى كانت على الضفة اليسرى ، وشتت شملها . وفى هذه المعركة ، أخذت من ساحة القتال تذكارات : أعلام ، ومدافع ، وجنرالان من الأعداء . وللمرة الأولى بعد تقهقر أسبوعين ، وقفت القوات الروسية . ولم تبق على ساحة القتال بعد المعركة فحسب ، بل صدّت الفرنسيين . وعلى أن القوات كانت منهوكة ، خَلِقة الملابس، وقد فقدت ثُلث عددها بين قتلى وجرحى ومرضى ومتخلفين ، وعلى أن عدداً من الجرحى قد تُركوا على الضفة الأخرى من الدانوب ، ومعهم خطاب يعهد فيه كوتوزوف بهم إلى إنسانية العدوّ ، وعلى أن المستشفيات والبيوت الكبرى فى كِرمس ، وقد أحيلت مستشفيات عسكرية ، لم تعد تحتمل كل المرضى والجرحى — على ذلك كله كانت الوقفة فى كِرمس ، والنصرة على مورتييه ، مما رفع من روح الجيش إلى حد كبير . وفى الجيش كله ، وفى القيادة العامة ، استطارت إشاعات تدعو لأشد البهجة ، وإن كانت خاطئة ، عن دنوّ متوهّم لصفوف قادمة من روسيا ، عن نصر أحرزه النمسويون، وعن تقهقر بوناپرت فزعا .

كان الأمير أندرو ، فى خلال المعركة، مرافقاً للجنرال النمسوى شميدْت، الذى قتل فى المعركة . كان حصانه قد أصيب وهو راكبه ؛ وذراعه نالها جرحٌ سطحى طفيف من رصاصة وأرسل ، علامة على إيثار القائد العام له إيثاراً خاصاً ، بأخبار هذا النصر ، إلى البلاط النمسوى الذى لم يعد الآن فى ڤينيا — إذ يتهددها الفرنسيون الآن — بل فى برون . وعلى ما يبدو على الأمير أندرو من رقة بنية ، فقد كان يسعه أن يحتمل الجهد البدنى احتمالا أشد وأصلب بكثير من عديد من الرجال المفتولين جداً . وفى ليلة المعركة، وكان قد وصل إلى كِرمس، منفعلا ، وإن كان غير متعب ، ومعه

رسائل من أوختوروف [1] إلى كوتوزوف ، أرسل على الفور برسالة خاصة ، إلى برون وكان إيفاده على هذا النحو لايعنى فحسب أن ذلك مكافأة له ، بل يعنى أيضاً خطوة هامة نحو الترقية .

كانت الليلة مظلمة ، ولـكنها مليئة بالنجوم ، وكان الطريق يبدو قاتماً فى الثلج الذى سقط اليوم الفائت ، يوم المعركة . وكان الأمير أندرو يستعيد انطباعاته عن المعركة الحديثة العهد ، ويصور لنفسه ، تصويراً سعيداً ، ما سوف تخلفه أخباره عن النصر من أثر ، ويتذكر كيف ودعه القائد العام ، وزملاؤه الضباط ، وهو يعدو فى عربة البريد ، مستمتعاً بشعور الرجل الذى أخذ ، فى النهاية ، يبلغ سعادة طالما تاق إليها . وما أن أغمض عينيه حتى بدا أن أذنيه قد امتلأتا بكركرة العجلات ، والحس بالنصر . ثم أخذ يتصور أن الروس يفرون ، وأنه قد قتل هو نفسه ، لـكنه استثار نفسه سراعاً ، بإحساسٍ من الفرح ، كما لو كان يعلم من جديد أن ذلك ليس بصحيح ، وأن الفرنسيين بالعكس هم الذين فروا من الميدان . واستماد ثانية كل تفاصيل النصر ، واستعاد ذكرى شجاعته الهادئة أثناء المعركة ، فاستعاد طمأنينته ، وأغفى .. وجاء بعد الليل المظلم المليء بالنجوم صبحٌ مشرق بهيج ، وكان الثلج يذوب فى ضوء الشمس ، والخيل تعدو بسرعة ، وعلى جانبى الطريق غابات من شتى الشكول ، وغيطان ، وقرى .

ولحق ، فى إحدى محطات البريد ، بركب من الجرحى الروس . وكان الضابط الروسىّ المسئول عن الرحْل ، يسترخى إلى الخلف ، فى مقدمة العربة ، يصيح بأحد الجنود ، ويقرعه ، بسباب مقذع . وفى كل من العربات الألمانية الطويلة ستة أو أكثر من الرجال ، شاحبين ، قذرين ،

(١) أحد الجنرالات الروس .

معصوبين بالضمادات ، تنفضهم العربات وتهزّهم على الطريق الحجريّة . وبعضهم يتكلمون — فقد سمع كلمات روسية — وبعضهم يأكلون خبزاً ، أما المصابين بجراح أخطر، فقد كانوا ينظرون صامتين باهتمام وحنان كاهتمام الأطفال المرضى ، إلى المبعوث الذى يتجاوزهم مسرعاً .

وطلب الأمير أندرو من سائقه أن يقف ، وسأل أحد الجنود فى أية معركة أصيبوا . فأجابه الجندى :

— أول أمس ، على الدانوب .

فأخرج الأمير أندرو كيس نقوده، وأعطى الجندى ثلاث قطع ذهبية. وقال للضابط الذى أقبل إليه :

— هذا لهم جميعاً .

واستأنف ملتفتاً إلى الجنود .

— شفاءً عاجلا يا أولاد ..! فما زال أمامكم الكثير .

وسأله الضابط ، فى لهفة واضحة للدخول فى حديث :

— ما الأخبار يا سيِّدى ؟

— أخبار طيبة . !

وهتف بالسائق :

— هيَّا .. !

وراحت العربة تعدو بهما :

وكان الظلام قد حل ، وساد ، عند ما كركرت عربة الأمير أندرو على شوارع برون المرصوفة ، وألفى نفسه محوطاً بالبنايات العالية ، وأنوار الدكاكين ، وفوانيس الشوارع ، والعربات الفخمة ، وكل ما فى مدينة كبيرة ناشطة من جو شديد الفتنة للجندى بعد حياة المسكر . وعلى الرغم من رحلته السريعة وليلته التى لم ينمها ، فقد أحس الأمير أندرو بنفسه ، إذ ركب إلى القصر ، أوفر نشاطا وأفتى حيوية ، مما كان فى اليوم الفائت .

إلا أن عينيه كانتا تلمعان لمعة المحموم ، وأفكاره تقتفى إحداها الأخرى بوضوح باهر وسرعة خارقة . واستعاد ثانية ، فى سطوع ، تفاصيل المعركة التى لم تعد باهتة الآن خابية ، بل واضحة ، واستعاد الصيغة الموجزة القاطعة التى تخيل نفسه يقولها بها للامبراطور فرانسيس . وتصور ، تصوراً ساطعا ، تلك الأسئلة العارضة التى عساها توجه إليه ، والأجوبة التى سوف يجيبها . وكان ينتظر أن يقدم على الفور إلى الامبراطور فرنسيس . إلا أن موظفا ، عند مدخل القصر الرئيسى ، جاء يجرى ليلقاه ، فلما علم أنه رسول خاص ، أفضى به إلى مدخلٍ آخر . وقال الموظف :

— إلى اليمين من الممر ، ياصاحب السعادة ، وستجد الياور المسئول . وسوف يقودك إلى وزير الحرب .

فلما لقيه الياور المسئول ، طلب منه أن ينتظر ، ودخل إلى وزير الحرب . وعاد بعد خمس دقائق ، وانحنى ، بكياسة مغالى بها ، وأفضى بالأمير أندرو ، وهو يتبعه فى أحد الممرات ، إلى القاعة التى كان يعمل بها وزير الحرب . وكان يبدو أن الياور ، بكياسته المتدبرة المغالى بها تلك ، يرغب أن يصدّ أى محاولة قد يقوم بها الرسول الروسى ليتألفه بها .

فوهن شعور الأمير أندرو بالبهجة ، وهناً كبيراً ، إذ كان يدنو من باب حجرة الوزير . وأحس امتهاناً لكرامته ، وحال شعوره بالامتهان ، على الفور ، ودون أن يلحظ ، إلى شعور من الزراية والتعالى ، لم يكن ثمّ ما يدعو إليه إطلاقا .

وأوحى إليه ذهنه الخصيب ، للتو ، بوجهة نظر كانت لتعطيه الحق فى أن يزدرى الياور ، والوزير . فخطر له : عساهم يظنون ، بعيداً عن رائحة البارود ، أن كسب النصر شىء هين ..! وضاقت عيناه فى زراية وتعالٍ ، ودخل غرفة وزير الحرب بخطى وئيدة متدبّرة التأنى . وحمى لديه هذا الشعور بالاحتقار والتعالى ، إذ رأى الوزير جالساً إلى مائدة كبيرة ، يقرأ بعض

الأوراق ويخط علها بالقلم الرصاص بعض الملاحظات ، ولا يلقى بالا إلى مقدمه ، لمدة دقيقتين أو ثلاثاً . وكانت هناك شمعة تقوم إلى كل من جانبي رأس الوزير الأصلع ، وصدغيه اللذين وخطهما الشيب وواصل قراءته حتى النهاية ، دون أن يرفع عينيه لانفتاح الباب ووقع الخُطى .

وقال لياوره ، وهو يعطيه الأوراق ، ولا يلقى بالاً ، مع ذلك ، إلى الرسول الخاص :

— خذ هذا وسلمه .

فأحس الأمير أندرو أن أعمال جيش كوتوزوف تعنى وزير الحرب أقل مما تعنيه أى المسائل الأخرى التى يشتغل بها ، أو أنه يريد أن ينقل هذا الشعور إلى الرسول الروسى الخاص . وخطر له « ولكن ذلك شيء لا يهمنى على الإطلاق » .

وجمع الوزير ما بقى من أوراق معاً ، وسواها فى نظام ، ثم رفع رأسه . كان له رأس ممتاز ، عقلى المظهر ، ولكنه ما أن التفت إلى الأمير أندرو حتى تغير مظهر وجهه الحازم الذكى إلى مظهر مقصود متدبر ، فيما هو واضح ، ومألوف عنه . واتخذ وجهه تلك الابتسامة الغبية المصطنعة — التى لا تحاول، حتى ، أن تخفى اصطناعها — لرجل يستقبل ، باستمرار ، كثيراً من طالبى الحاجات ، وأحداً إثر الواحد .

وسال :

— من الجنرال فيلد مارشال كوتوزوف ؟ أرجو أن تكون أخباراً طيبة ؟ هل حدث اشتباك مع مورتين ؟ انتصار ؟ آن الأوان ..!

وأخذ الرسالة الموجهة إليه ، وأخذ يقرأها وعلى وجهه تعبير مكتئب محزون .

وهتف بالألمانية :

— آه ، يا إلهى ..! يا إلهى ..! شميدت ..! يا للمصيبة ..! يا للمصيبة ..!

فلما عَبَر بنظره محتويات الرسالة وضعها على المائدة ، ونظر الى الأمير أندرو ، ومن الواضح أنه يفكر فى شيء ما :

— آه ، يا للمصيبة .! تقول أن المسألة كانت حاسمة ؟ ولكن مورتييه لم يُؤسر .

ثم تعمق الفكر ثانية .

— إننى مسرور جداً بأنك أحضرت أخباراً طيبة ، وإن كان موت شميدت ثمناً فادحاً لهذا النصر ، وسوف يرغب صاحب الجلالة بلا شك أن يراك ، لكن ليس اليوم . إنى أشكرك ..! ويجب أن تستريح . تعال إلى اجتماع البلاط غداً ، بعد الاستعراض . وسوف أخطرك على أى حال .

وعادت إلى الظهور ابتسامته الغبية التى كانت قد بارحت وجهه أثناء الكلام .

وأضاف ، محنياً رأسه :

— أوريڤوار ..! أشكرك جداً ، سوف يرغب صاحب الجلالة ، ربما ، فى أن يراك .

وعند ما غادر الأمير أندرو القصر ، أحس أن كل ما منحه النصر من شغف وسعادة قد تُرك الآن بين يدى وزير الحرب والياور المؤدب بلا مبالاتهما . وتغير للتو كل قوام أفكاره ، وبدت المعركة كأنها ذكرى حدث بعيد قصى انقضى منذ زمان طويل .

الفصل العاشر

نزل الأمير أندرو مع بيليبين ، أحد معارفه فى السلك الديبلوماسى ، فى برون .

قال بيليبين ، وهو يخرج لملاقاة الأمير أندرو :

— آه ، أيها الأمير العزيز ..! لم أكن لألق زائراً أكرم منك وفادة ..!

وقال للخادم الذى استقبل بولكونسكى :

— فرانز ، ضع حاجات الأمير فى غرفة نومى .

واستطرد :

— فأنت إذن رسول النصر هيه ..؟ عظيم ..! وأنا قاعد هنا مريض ، كما ترى .

وبعد أن اغتسل الأمير أندرو ولبس ، دخل إلى غرفة مكتب الديبلوماسى الباذخة ، وجلس إلى العشاء المعد له . وأوى بيليبين إلى جانب النار ، فى دعة وراحة .

وأحس الأمير أندرو ، بعد رحلته ، وبعد الحملة التى حرم فيها كل متع النظافة وكل مباذخ الحياة ، بشعور لطيف ، سار ، من الراحة ، بين أنواع من الترف تحيط به كتلك التى ألفها منذ طفولته . إلى أنه كان من اللطيف ، بعد ما لقى من استقبال النمسويين ، أن يتكلم ، وإن لم يكن بالروسية — فقد كانا يتكلمان الفرنسية — فهو يتكلم مع روسى يشاركه — فيما يفترض — ذلك النفور الروسى العام من النمسويين ، وهو شعور كان إذ ذاك ملحوظ الشدة

كان بيليبين فى الخامسة والثلاثين ، عزبا ، وينتمى إلى نفس الوسط الذى ينتمى إليه الأمير أندرو . وكان بأحدهما الآخر سابق معرفة فى بطرسبرج ، وإن كانت قد توثقت علاقتهما عند ما كان الأمير أندرو ڤيينا مع كوتوزوف . وكما كان الأمير أندرو شابا واعداً بالإرتقاء عاليا فى السلك العسكرى ، كان بيليبين ، بل إلى حد أكبر ، واعداً بالإرتقاء فى مستقبله الديبلوماسى . كان مازال شابا صغيراً ، لكنه لم يعد ديبلوماسيا صغيراً ، فقد التحق بالسلك منذ السادسة عشرة ، وذهب إلى باريس ،

وكوبنهاجن ، وكان الآن يشغل منصبا على قدر من الأهمية فى ڤيينا . وكان وزير الخارجية ، وسفيرنا فى ڤيينا ، كلاهما يعرفانه ويقدرانه . لم يكن واحداً من أولئك الدبلوماسيين الكثيرين الذين يلقون التقدير ، لأن لهم خصالا سلبية بعينها ، ويتحامون عن فعل أشياء بعينها ، ويتكلمون الفرنسية . بل كان من أولئك الذين يحبون العمل ، ويعرفون كيف يقومون به . وعلى ميله للكسل ، يقضى ليلة كاملة ، أحيانا ، جالسا إلى مكتبه . وكان يقوم بعمله على قدر سواءٍ من الإجادة ، أياً كان مضمون عمله . لم تكن المسألة عنده « لمَ ؟ » بل المسألة « كيف ؟ » . ولم يكن يعنى بما عساه تكون المسألة الدبلوماسية التى يشتغل بها ، بل كان يسره جد السرور أن يعد منشوراً دوريا ، أو مذكرة ، أو تقريراً ، إعداداً أنيقاً ، بارعاً ، واضح النقاط . ولم تكن خدمات بيليبين تقدّر فحسب لما كان يكتبه ، بل لحذقه أيضا فى التعامل مع أولئك الذين يشغلون أرفع المجالات ، والتحدث إليهم .

كان بيليبين لايحب الحديث حبه للعمل ، إلا إذا أمكن أن يصبح الحديث بارع الذكاء ، لماحاً ، ورشيق العبارة . وكان فى المجتمعات ، يترقب دائما فرصة يقول فيها شيئا باهراً ، ولا يأخذ فى حديث ، إلا إذا كان من الممكن أن تتاح له هذه الفرصة . وكان حديثه دائما مرشوقا بعبارات مصقولة ، طريفة ، بارعة ، فى المسائل العامة . وكانت هذه الأقوال تهيأ فى المعمل الداخلى فى ذهنه ، بشكل سهلٍ قابل للحمل ، كما لو كان ذلك عن قصدٍ إليه ، حتى يتاح للتافهين من ناس المجتمع ، أن ينقلوها معهم من غرفة استقبال إلى غرفة استقبال . وكانت طرائف بيليبين ، فى الواقع ، يتجر بها فى غرف استقبال ڤيينا ، وكان لها فى الغالب أثرها فى أمور تعد أموراً هامة .

وكان وجهه المنحوف الباهت المرهق مغطى بغضون عميقة ، تبدو نظيفة

قد غسلت غسلا جيداً كأطراف الأصابع بعد حمام روسى . وكانت حركة هذه الغضون تشكل مدار التعبير الرئيسى فى وجهه فكان جبينه يتغضن تارة فى طيات عميقة ، ويرتفع حاجباه ، ثم ينزل حاجباه تارة ، ويتكمش خداه بالغضون العميقة . وكانت عيناه الصغيرتان ، الغائرتان ، تلمعان دائماً ، وتنظران إلى الأمام مواجهة .

قال :

— والآن قل لى عن أعمال فروسيّتك

فوصف بولكونسكى المعركة ، بتواضع جم ، ودون أن يشير إلى نفسه مرة واحدة ، ووصف استقبال وزير الحرب له .

وقال فى النهاية :

— استقبلونى واستقبلوا أخبارى كما يستقبل المرء كلباً فى لعبة الكُرات .(١)

فابتسم بيليبين ، واختفت الغضون من وجهه . وقال بالفرنسية وهو يفحص أظافره من بعيد ، ويزم جلدة وجهه فوق عينيه اليسرى :

— ومع ذلك يا عزيزى وعلى الرغم من الاحترام الكبير الذى التزم به إزاء الجيش الروسى الأرثوذكسى ، فإننى أقر أن ظفرك هذا ليس مظفراً جداً .

وواصل حديثه على هذا النمط ، بالفرنسية ، لايلفظ بالروسية إلا تلك الكلمات التى يريد أن يكسبها رنة الاحتقار والزراية .

— هيا هيا ..! أنتم بقواتكم جميعاً تقعون على مورتييه التعس وفرقته الواحدة ، ثم يفلت مورتييه ، مع ذلك ، من بين أصابعكم .! فأين النصر ؟

قال الأمير أندرو :

---

(١) مثل بالفرنسية .

ــ ولكننا على أى حال ، بجدّ ، نستطيع أن نقول ، دون مباهاة ، أن ذلك يَفْضُل قليلاً ماحدث فى أولم .

ــ لماذا لم تأسروا لنا مارشالا واحداً ، واحداً فقط ؟

ــ لأن كل شىء لايحدث ، جميعاً ، كما ينتظر المرء ، ولا كما يحدث فى الاستعراضات . كنا ننتظر أن نبلغ مؤخرتهم ، كما قلت لك ، عند السابعة صباحاً . فلم نصل إليها حتى الخامسة بعد الظهر .

فأجاب بيليبين بابتسامة :

ــ ولِمَ لم تفعلوا ذلك فى السابعة صباحاً ؟ كان ينبغى أن تكونوا هناك فى السابعة صباحا . كان ينبغى أن تكونوا هناك فى السابعة صباحاً .

فرد الأمير أندرو بنفس النبرة :

ــ لماذا لم تقنعوا بونابرت بالطرق الدبلوماسية أنه يحسُن به أن يترك جنوا وشأنها ؟

فقاطعه بيليبين :

ــ عارف ، أنت تفكّر أنه من السهل جداً أخذ المارشالات ، بينما المرء جالس على أريكة جنب النار ..! هذا صحيح ، ولكن لِمَ لم تأسروه مع ذلك ؟ فلا تندهش إذن إن لم يكن ، لا وزير الحرب فحسب . بل صاحب الجلالة المعظم الامبراطور والملك فرانسيس نفسه ، مسرورين جداً بانتصاركم. حتى أنا السكرتير المسكين فى السفارة الروسية ، لستُ أحس حاجة أن أعطى فرانز قطعة « تالير » علامة على فرحى ، ولا أن أدعه يخرج مع فتاته إلى « البريتير » ... صحيح ، ليس لدينا هنا « بريتير » ...

ونظر إلى الأمير أندرو مواجهة ، ثم انبسطت غضون جبينه فجأة .

قال بولكونسكى :

ــ والآن جاء دورى لأسألك : « لماذا ؟ » ياعزيزى . أعترف أننى لستُ أفهم : فلعلّ هناك دقائق دبلوماسية تتجاوز فهمى الضعيف ، لكنى

لا أستطيع أن أفهم . إن ماك يفقد جيشا بأكمله ، ولا يبدى الأرشيدوق فردبناند ، ولا الأرشيدوق كارل علامة على الحياة ، ويقعان فى العثرة بعد العثرة ، وكوتوزوف وحده فى النهاية يكسب انتصاراً حقيقيا ، ويقضى على أسطورة أن الفرنسيين لا يُقهرون ، فلا يعنى وزيرالحرب حتى بأن يسمع التفاصيل .

— هذه هى المسألة بالضبط يا صاحبى العزيز ..! ألا ترى أنها مسألة « يعيش » القيصر ، وروسيا ، والدين الأورثوذكسى الحنيف ..! هذا كله جميل . ولكن فيم تعنينا نحن ، وأقصد البلاط النمسوى ، انتصاراتكم ؟ هات لنا أخباراً ظريفة عن انتصار من الأرشيدوق كارل أو فرديناند — وكلهم أرشيدوقات يتساوون ، كما تعرف — وحتى لو كان انتصاراً على فرقة مطافىء حريق عند بونابرت ، فتلك مسألة أخرى ، وسنطلق بعض المدافع ..! ولكن هذه الأشياء يبدو أنها متعمدة لتضايقنا . الأرشيدوق كارل لايفعل شيئاً ، والأرشيدوق فرديناند يجلب العار على نفسه . وأنتم تسلمون فيينا ، وتتخلون عن الدفاع عنها .. كما لو كنتم تقولون : « إن السماء معنا . ولكن فلتساعدكم السماء أنتم وعاصمتكم ..! » والجنرال الوحيد الذى كنا نحبه جميعاً ، شميدت ، تعرّضونه لرصاصة . ثم تأتون تهنئونا بالانتصار ..! سلّم معى بأنه لم يكن يمكن تصور أخبار أكثر مدعاة للغيظ من أخبارك . إن ذلك يبدو كما لو كان عن عمد .. عن عمد . وإلى ذلك ، فهب أنكم أحرزتم فعلا نصراً باهراً ، بل لو أحرز الأرشيدوق كارل نصراً ، فما أثر ذلك على المجرى العام للأحداث ؟ فات الوقت الآن . بينما يحتل الجيش الفرنسى فيينا ..!

— ماذا ؟ احتلها ..؟ فيينا محتلة ؟

— ليست محتلة فحسب ، بل أن بونابرت فى شون برون ، وصاحبنا العزيز الكونت فربنا ، يذهب إليه يتلقى منه أوامره .

كان بولكونسكى ، بعد متاعب الرحلة وانطباعاتها فى نفسه ، وبعد استقباله ، وبعد أن تعشى خاصة ، يحسّ أنه لا يستطيع أن يفهم كلّ دلالة الكلمات التى سمعها .

وواصل بيليبين حديثه :

ــ كان الكونت ليشتينْفلْس هنا هذا الصباح ، وأظهرنى على خطاب فيه وصف كامل لاستعراض موكب الفرنسيين فى ڤيينا : الأمير مورا ، وكل زلزلة الأرض ... هأنت ترى أن انتصاركم ليس مدعاة فرح عظيم ، وأنه لا يمكن استقبالك استقبال المنقذين .

فقال الأمير أندرو ، وقد أخذ يفهم أن أخباره عن المعركة أمام كرِمْس كانت قليلة الخطر حقاً بإزاء حدث مثل سقوط عاصمة النمسا :

ــ لست أهتم بذلك فى الحقيقة ، لست أهتم بالمرة . كيف أُخِذت ڤيينا ؟ وماذا عن الجسر ، ورأس الجسر الشهير ؟ والأمير آورِسْبرْج ؟ فقدسمعنا أخباراً عن أن الأمير آورسبرج يدافع عن ڤيينا ..؟

ــ الأمير آورسبرج على هذا الجانب ، جانبنا هذا من النهر ، وهو يُدافع عنا ــ ويفعل ذلك فيما أظن بغاية السوء ــ ولكنه يدافع عنا مع ذلك . إلا أن ڤيينا تقع على الجانب الآخر . لا ، لم يُؤخذ الجسر بعد ، وآمل ألا يؤخذ ، فهو ملغوم وقد صدرت الأوامر بنسفه . وإلا كنا منذ زمن طويل ، فى جبال بوهيميا ، وكنت أنتم وجيشكم ، قد مرت بكم ساعة محنة ، بين نارين .

فقال الأمير أندرو :

ــ ولكن هذا لا يعنى مع ذلك أن الحملة قد انتهت .

ــ حسناً ، أظنها قد انتهت فى رأيى ، والكبار هنا يظنون ذلك أيضاً ، لكنهم لا يجسرون على قوله . وسيكون الأمر ، كما قلت فى بداية الحملة ، لا بمناوشاتكم عند دورين شْتَيْن ، ولا بالبارود إطلاقاً ، تسوّى المسألة ،

بل بين أولئك الذين دبّروها .

وأطلق الغضون، فانبسطت على جبينه ، وهو يردّد بنفسه قَوْلته تلك المأثورة ، وكفّ قليلا .

— والسؤال الوحيد هو ماذا ستكون نتيجة اجتماع الامبراطور ألكسندر وملك بروسيا ، فى برلين ؟ فاذا انضمت بروسيا إلى الحلفاء فقد أرغمت النمسا ، وقامت الحرب . وإذا لم تنضم فالمسألة مجرد تحديد المكان الذى ترسم فيه الخطوط التمهيدية لكامبو فورميو جديدة .

فهتف الأمير أندرو فجأة :

— يالها من عبقرية خارقة ..!

وهو يضم يده الصغيرة ويضرب المائدة بها .

— وأى حظ حسن يلقى هذا الرجل ..!

فقال بيليبين متسائلا ، وهو يزمّ غضون جبينه ، ليدل على أنه يهمّ بأن يقول شيئاً طريفاً :

— بونابرت ؟

وردّد ، وهو يضغط على الواو :

— بونابرت ؟ أظن أنه ، وهو الآن يسنّ القانون للنمسا ، فى شون برون ، يجب إعفاؤه من الواو ..! وسوف أتخذ بالتأكيد تجديداً ، وأسميه ببساطه بُنابرت . !

قال الأمير أندرو :

— بصرف النظر عن المزاح ، أتعتقد فعلا أن الحملة قد انتهت ؟

— هذا ماأعتقده ، فقد غُرِّرَ بالنمسا ، وهى لم تألف ذلك . فسوف تنتقم . وقد غرر بها ، أولا ، لأن أقاليمها قد نهبت — يقولون أن الجيش الروسىّ المقدّس يقوم بالسلب والنهب على نطاق مخيف ، وقُضى على جيشها وأُسِرَت عاصمتها ، وكل ذلك من أجل سواد عيون صاحب الجلالة

السردينيّة . ولذلك — وهذا بيننا — فإنى أشعر بالغريزة، أننا نُخدَع ، وتقول لى غريزتى عن مفاوضات مع فرنسا ، ومشروعات للصلح ، صلح سرّى ، يُعقد على حدة .

فصاح الأمير أندرو :

— مستحيل .. ! هذا ليكون دنيئاً جداً .

فأجاب بيليبين وقد عاد وجهه ناعما ، أمارة على انتهاء الحديث :

— مَنْ يعِش يرَ ..!

ولما بلغ الأمير أندرو الحجرة التى أُعِدَّت له ؛ ورقد فى قميص نظيف على سرير من الريش بوسائده المطرة الدافئة ، أحسّ أن المعركة التى جاء بأنبائها كانت شيئا نائياً قصيّاً عنه . وكان الحلف مع بروسيا ، وخيانة النمسا ، وانتصار بونابرت الجديد ، واجتماع البلاط ، والاستعراض غداً . تشغل باله .

أغمض عينيه . وبدا له على الفور أن أذنيه تمتلئان بقرع المدافع ، والبنادق ، وكركرة عجلات العربات ، وكان جنود الرماة الآن ، مرة أخرى ، ينحدرون على التل فى صف رقيق ، والفرنسيون يطلقون النار . وأحسّ قلبه ينبض، إذ يركب إلى الأمام ، إلى جانب شميدت ، والرصاص يصفر ، فى مرح ، من كل ناحية. وأحس بهجة الحياة مضاعفة عشر مرات، كما لم يحسها منذ الطفولة .

واستيقظ ...

وقال :

— نعم ، قد حدث كل هذا ..!

وهو يبتسم لنفسه ، بسعادة ، كالطفل ، وأغفى فى نوم عميق ، نوم الشباب .

الفصل الحادى عشر

واستيقظ متأخراً فى اليوم التالى . فلما استعاد انطباعاته الأخيرة ، كان أول ما خطر بذهنه أنه كان عليه اليوم أن يُقدّم إلى الأمبراطور فرانسيس ؛ وتذكر وزير الحرب ، والياور النمسوى المؤدب ، وبيليبين، وحديث البارحة . وارتدى ملابسه لحضور البلاط ، فى زىّ الاستعراض الكامل ، وهو زى لم يرتده منذ زمن طويل . ومضى إلى غرفة مكتب بيليبين ، منتعشاً ، مليئاً بالحيوية ، وسيما ، ويده معصوبة . وكان فى المكتب أربعة سادة من السلك الدبلوماسى . وكان له سابق معرفة بالأمير هيبوليت كوراچين ، وقد كان سكرتيراً بالسفارة . وقدّمه بيليبين إلى الآخرين .

كان السادة المجتمعون عند بيليبين من رجال المجتمعات المرحين الأثرياء الشبان، وكانوا هنا ، كما كان شأنهم فى ڤيينا ، يكوّنون جماعة خاصة يسميها بيليبين ، قائدها ، « جماعتنا » . وكانت هذه الجماعة التى تتكون على وجه القصر تقريباً من الدبلوماسيين ، لها فيما هو واضحٌ مصالحها الخاصة التى لا شأن لها بالحرب أو السياسة ، بل تتعلّق بالمجتمع الراقى ، وبنساء بعينهن ، وبالجانب الرسمى من العمل . واستقبل هؤلاء السادة الأمير أندرو استقبالَ واحدٍ منهم ، وهو شرفٌ لم يكونوا يُضفوه على كثيرين . وسألوه ، من باب حسن الأدب ، وعلى سبيل الأخذ بأطراف الحديث ، بضع أسئلة عن الجيش وعن الموقعة ، ثم مضى الحديث إلى النكات المرحة ، والثرثرة .

قال أحدهم يَحكى عن سوء حظ أحد الزملاء الدبلوماسيين :

— ولكن أحسن ما فى الموضوع أن المستشار قال له بوضوح أن تعيينه فى لندن كان ترقية ، وأن عليه أن ينظر إليه فى هذا الضوء . هل

تتصور شكله عندئذ ..؟

— أما أسوأ ما فى الموضوع — وهأنذا أشى بكوراچين عندكم — أن هذا الرجل يتألم ، وهذا الدون چوان ، الشرير ، يستغل ذلك ..!

كان الأمير هيپوليت مسترخياً فى مقعد طويل ، ساقاه فوق ذراع المقعد فأخذ يضحك . وقال :

— قولوا لى الحكاية ..!

فصاحت أصوات عدة :

— أوه ، أنت يادون چوان ..! يا ثعبان ..!

قال بيليبين ملتفتاً إلى الأمير أندرو :

— أنت يا بولكونسكى لا تعرف ، أن كل فظاعات الجيش الفرنسى — كنت على وشك أن أقول الجيش الروسى — لا شىء بالمقارنة إلى ما كان يفعله هذا الرجل بين النساء ..!

فأعلن الأمير هيپوليت :

— المرأة رفيق الرجل ..!

وأخذ ينظر خلال عوينته ، إلى ساقيه المرفوعتين .

فانفجر بيليبين ، وسائر « جماعتنا » ضاحكين فى وجه هيپوليت ، وأدرك الأمير أندرو أن هيپوليت الذى كان يوشك أن يغار منه — كان عليه أن يسلّم بذلك — على زوجته ، كان فى الواقع مسخرة هذه الجماعة .

همس بيليبين إلى بولكونسكى :

— أوه ، يجب علىّ أن أمتعك جداً . كوراچين ، عندما يناقش فى السياسة ، شخص رائع — ينبغى لك أن ترى رصانته وجده ..!

وجلس إلى جوار هيپوليت ، وغضّن جبينه ، وأخذ يتكلم إليه عن السياسة . وتحلّق الأمير أندرو ، والآخرون ، حول هذين الاثنين .

وأخذ هيپوليت يقول ، وهو يحدّق إلى الآخرين ، بأهمية :

ـــ لايمكن للوزارة فى برلين أن تعبّر عن شعــور التحالف ، دون أن تعبّر . كما ذكرتْ فى مذكرتها الأخيرة...أتفهمنى... ثم أنه ، ما لم يشين صاحب الجلالة الأمبراطور بمبدأ تحالفنا ...

وقال للأمير أندرو ، ممسكا به من ذراعه :

ـــ انتظره ، لم أنتهِ بعد ... إننى أعتقد أن التدخل سيكون أقوى من عدم التدخل و...

ثم توقف . وقال :

ـــ ولا يمكن للمرء ، أخيراً ، أن يعزو عدم استلام رسالتنا المؤرخة ١٨ نوفمبر ... هذا كيف ستنتهى المسألة .

وأطلق ذراع بولـكونسكى ليشير إلى أنه قد انتهى الآن تماما .

قال بيليبين :

ـــ ديموستين ، إننى أعرفك من الحصاة التى تخفيها فى فمك الذهبى..!

وتحركت خصل الشعر المهوشة على رأسه ، فى رضا .

وضحك الجميع . وضحك هيبوليت بأعلى من الجميع . كان واضحا أنه مَكروب. وكان يتنفس بمشقة لـكنه لم يكن ليستطيع أن يكبح الضحك الجامح الذى كانت تتقبض به قسمات وجهه السلبيّـة فيما هو مألوف عنه .

قال بيليبين :

ـــ حسنا أيها السادة ، إن بولـكونسكى ضيفى فى هذا البيت ، وفى برون نفسها . وأريد أن أوفر له التسلية ، بقدر ما يسعنى ، بكل مسرات الحياة هنا . لو كـنّا فى ڤينيا لكان ذلك سهلا . أما هنا فى هذه الحفرة التعسة فى موراڤيا ، فهو أصعب . وأتوسل إليكم جميعا أن تساعدونى . يجب أن يرى كل ما فى برون من تسليات . أنت تستطيع أن تتولى المسرح ، وأنا المجتمع ، وأنت ياهيپوليت ، النساء بالطبع .

قال واحد «جماعتنا» وهو يقبل أطراف أصابعه :

— يجب أن ندعه يرى أميلى ، إنها رائعة ..!

قالى بيليبين :

— يجب علينا ، بصفة عامة ، أن نحوّل هذا الجندى المتعطش للدماء إلى اهتمامات أكثر إنسانية .

فأجاب الأمير أندرو وهو ينظر إلى ساعته :

— لن يمكننى أن أفيد من كرمكم أيها السادة ، فقد حان فعلا وقت ذهابى .

— إلى أين ؟

— إلى الامبراطور .

— أوه ! أوه ! أوه !

وصاحت أصوات عدة :

— حسناً ، أوريڤوار ، بولكونسكى ..! أوريڤوار أيها الأمير . ! تعال للعشاء مبكراً . سنتولاك بأنفسنا .

قال بيليبين وهو يرافقه إلى الردهة :

— عندما تتكلم إلى الأمبراطور ، حاول بقدر استطاعتك أن تثنى على الطريقة التى تُزوَّد بها الامدادات ، وتوضّح بها الطُّرُق .

فأجاب بولكونسكى باسماً :

— بودى لو أطريت ذلك ، ولكنى بقدر معرفتى للحقائق ، لا أستطيع .

— حسناً ، تكلم أكثر ما يسعك الكلام على أى حال . إنه يحب أن يستقبل الناس ، لكنه لا يحب الكلام بنفسه ، ولا يستطيع ، كما سوف ترى .

الفصل الثانى عشر

كان الأمير أندرو يقف ، فى اجتماع البلاط ، بين الضباط النمسويين ، كما قيل له ، ولم يفصل الامبراطور فرانسيس إلا أن نظر إلى وجهه نظرة ثابتة ، وأومأ له برأسه الطويل، إلا أنه بعد أن انتهى الاجتماع جاء الياور الذى رآه فى اليوم السابق ، وأنبأه ، باحتفال كبير ، أن الأمبراطور يريد أن يستقبله . واستقبله الامبراطور فرانسيس واقفاً فى وسط الغرفة. وقبل أن يبدأ الحديث، دهش الأمير أندرو من أن الامبَراطور كان يبدو مرتبكا ، وقد تضرّج وجهه ، كما لو كان لايدرى ماذا يقول .

وسأله بتعجل :

— قل لى ، متى بدأت المعركة ؟

فأجابه الأمير أندرو . ثم تبعت ذلك أسئلة أخرى ، على نفس القدر من البساطة : « أكان كوتوزوف بخير ؟ متى بارح كرِمْس؟ » وهكذا . كان الامبراطور يتكلم، كما لو كان غرضه الواحد أن يوجه عدداً من الأسئلة ، أما الإجابات عن هذه الأسئلة ، فقد كان أمراً شديد الوضوح أنها لا تهمّـه .

سأل الامبراطور :

— وكم كانت الساعة عندما بدأت المعركة ؟

فأجاب بولكونسكى :

— لستُ أستطيع أن أخبر جلالتكم كم كانت الساعة عندما بدأت المعركة فى الجبهة ، أما فى دورين شتين، حيث كنت ، فقد بدأ هجومنا بعد الخامسة عصراً .

وقد ازداد حماسه ، وخيل له أن ستُتاح له الفرصة ليُدلى بوصفٍ يعتمد عليه ، مهيأ فى ذهنه ، لكل ماعرفه وكل مارآه . على أن الأمبراطور ابتسم وقاطعه :

— كم ميلا ؟

— من أين إلى أين . ياصاحب الجلالة ؟

— من دورين شتين الى كرمس

— ثلاثه أميال ونصف يا صاحب الجلالة .

— والفرنسيون تركوا الضفة اليسرى ؟

— وعبر آخر الفرنسيين النهر ، وفقاً لتقريرات جنود الاستكشاف ، على أطواف فى خلال الليل .

— أهناك علف كاف فى كرمس ؟

— لم تأت إمدادات العلف إلى بالقدر ..

قاطعه الامبراطور :

— وكم كانت الساعة عندما قُتِلَ الجنرال شميدت ؟

— الساعة السابعة . أعتقد .

— الساعة السابعة ؟ ذلك مؤلم جداً .. مؤلم جداً ..!

وشكر الامبراطور الأمير أندرو . وانحنى . وانسحب الأمير أندرو . وأحيطَ به على الفور من رجال البلاط ، من كل جانب . ورأى أنّى اتجه ، نظرات الود ، وسمع كلمات الود . وعتب عليه ياور الأمس أنه لم ينزل بالقصر ، واقترح عليه أن يبيت بمنزله . وأقبل عليه وزير الحرب وهنأه بنوط ماريا تيريزا من المرتبة الثالثة ، وقد خلعه عليه الامبراطور . ودعاه تشريفاتى الامبراطورة أن يقابل جلالتها . وكانت الأرشيدوقة أيضاً تريد أن تراه . ولم يعرف مَنْ يجيب ، وأخذ يستجمع أفكاره بضع لحظات . ثم أخذه السفير الروسى من كتفه ، وأفضى به إلى النافذة ، وأخذ يتكلم إليه .

كانت الأخبار التى أتى بها . على عكس ماتنبأ به بيليبين ، قد استقبلت بفرح . ونُظم أمر إقامة قداس للشكر . ومنح كوتوزوف صليب ماريا تيريزا الأكبر ، وتلقى الجيش بأكمله جوائز ومكافآت . ودُعى بولكونسكى

إلى كل مكان . واضطر أن يقضى الصباح بطوله يزور أهم الرجال الـكبار النمسويين . وبعد أن أدَّى كل زياراته ، كان فى طريقه إلى بيت بيليبين ، بين الرابعة والخامسة بعد الظهر ، وهو يفـكر فى صيغة خطاب إلى أبيه عن المعركة ، وعن زيارته لبرون . ووجد عند الباب عربة مليئة بالامتعة . وكان فرانز ، خادم بيليبين ، يجر حقيبة ملابس ، بشىء من المشقة ، من الباب الخارجى .

كان الأمير أندرو ، قبـل أن يعود إلى بيت بيليبين ، قد ذهب إلى مكتبة ، ليتزوَّد ببعض الـكتب للحملة ، وأنفق شيئا من الوقت فى المـكتبة . فسأل :

ــ ماذا حَدث ؟

قال فرانز ، وهو يدحرج الحقيبة بمشقة ، فى داخل العربة :

ــ أوه ، يا صاحب السعادة .. ! علينا أن ننتقل إلى أبعـد أيضاً . فالوغد فى أعقابنا مرَّة أخرى .. !

سأل الأمير أندرو :

ــ إيه ؟ ماذا ؟

خرج بيليبين ليلقاه ، وكان وجهه الهادىء عادة ، ينمّ عن الانفعال ، وقال :

ــ هاك الآن .. ! أعترف بأن هذا سارٌّ مفرح .. ! هذه الحكاية عن جسر تابور فى ڤيينا ... إنهم عَبَروا ، دون أن يضربوا ضربة واحدة .. !

لم يستطع الأمير أندرو وأن يفهم :

ــ ولـكن من أين تأتى حتى لا تعرف ما يعرفه كل حـوذى فى البلدة ؟

ــ إننى آتى من عند الأرشيدوقة . ولم أسمع شيئاً هناك .

ــ ولم ترَ أن الجميع يحزمون أمتعتهم ؟

فسأل الأمير أندرو نافد الصبر :

— لم أرَ ... ما الحكاية كلها ..؟

— ما الحكاية كلها ..؟ عَبَر الفرنسيون الجسر الذى كان يدافع عنه آورسبرج ، ولم يُنسف الجسر : ومن ثمَّ فإن ميرا منطلق الآن على الطريق إلى برون ، وسيكون هنا فى مدى يوم أو يومين .

— ماذا ؟ هنا ؟ ولكن لماذا لم ينسفوا الجسر ، إن كان ملغما ..؟

— هذا ما أسألك إياه . لا أحد ، ولا بونابرت حتى ، يعرف لماذا .

هزَّ بولكونسكى كتفيه . وقال :

— ولكن إذا كانوا قد عبروا الجسر ، فمعنى ذلك أن الجيش أيضا قد ضاع ..! وسوف يُقطع عليه الطريق .

أجاب بيليبين :

— بالضبط . اسمع ..! الفرنسيون دخلوا فيينا ، كما قلت لك . حسناً جداً . واليوم التالى ، الذى كان أمس ، هؤلاء السادة ، الماريشالات ، ميرا ، لانّ ، بليار ، يمتطون جيادهم ويركبون إلى الجسر — لاحظْ أن ثلاثتهم غسقونيون — ويقول أحدهم : « يا سادة ، أتعرفون أن جسر تابور ملغَّم ، وملغم مرَّتين ، وأن هناك على رأسه تحصينات مُهدَّدة ، وأن جيشاً من خمسة عشر ألف رجل قد صدرت إليه الأوامر بنسف الجسر ، وألا يدعنا نمر ؟ ولكن ، سوف يسرّ عاهلنا ، الامبراطور نابليون ، أن نأخذ الجسر ، ومن ثم فلنذهب ثلاثتنا ونأخذه ، ويقول الآخرون : « نعم ، هيا بنا ..! » ويمضون ويأخذون الجسر ، ويعبرونه ، وهم الآن ، بجيشهم كله على هذا الجانب من الدانوب ، يزحفون علينا ، وعليكم ، وعلى خطوط مواصلاتكم .

فقال الأمير أندرو ، حزينا ، وجاداً :

— كف عن المزاح .

كان هذا الخبر يحزن ، ومع ذلك فقد كان مسروراً .

فما أن عرف أنّ الجيش الروسى كان فى مثل هـذا الموقف الذى لا أمل فيه ، خطر له أنه هو الذى كان مقدراً له أن يقوده ليخرجه من هذا الموقف ، وأن هنا طولون[1] التى سوف ترفعه من مرتبة الضباط المغمورين ، وتمنحه أول خطوة نحوالشهرة ، وكان إذ يصغى إلى بيليبين ، يتصوّر من ساعتها ، كيف أنه حينما يصل إلى الجيش ، سوف يدلى برأى فى مجلس الحرب ، هو الرأى الوحيد الذى يمكن أن ينقذ الجيش ، وكيف سيعهد إليه ، وحده ، بتنفيذ الخطة .

قال :

— كف عن هذا المزاح .

فمضى بيليبين :

— لست أمزح . فليس أصدق من هذا ولا أدعى للحزن . هؤلاء السادة يركبون إلى الجسر وحدهم ويلوحون بالمناديل البيضاء ، ويؤكدون للضابط المسئول أنهم — الماريشالات — فى طريقهم للمفاوضة مع الأمير آورسبرج . فيدعهم يدخلون رأس الجسر . فيحكون له ألف حكاية غسقونية ، قائلين أن الحرب قد انتهت ، وأن الامبراطور فرانسيس يرتب اجتماعا مع بونابرت ؛ وأنهم يريدون أن يقابلوا الأمير آورسبرج ، وهلم جرّا . فيرسل الضابط فى طلب آورسبرج . وهؤلاء السادة يعانقون الضباط ، ويطلقون النكات ، ويجلسون على المدفع ، وفى هـذه الأثناء تصل أورطة فرنسية إلى الجسر ، دون أن يلحظها أحد ، وتطوح بأكياس المواد الحارقة إلى المياه ، وتدنو من رأس الجسر . وأخيراً يظهر الليفتينانت جنرال صاحبنا العزيز الأمير آورسبرج فون ماوتيرن بنفسه . « عـدونا

---

(١) عند طولون ، حينما حاصرها الجمهوريون فى ١٧٩٣ ، برز نابليون للمرة الأولى ، تبريزاً كبيراً .

الحميم الأعز . . ! يا زهرة الجيش النمسوى ، وبطل الحروب التركية ..!
قد انتهت الحرب . ونستطيع أن نتصافح .. إن الامبراطور نابليون يحترق لهفة للتعرف إلى الأمير آورسبرج » بكلمة واحدة ؛ هؤلاء السادة ، شأن الغسقونيين حقا ، يبلغون من إدخال الاضطراب والربكة عليه بالكلمات المعسولة، ويبلغ من سروره بهذه الصداقة الحميمة التي سرعان ماتوثقت بينه وبين الماريشالات الفرنسيين ، ومن انبهاره ، لمرأى وشاح ميرا ، وريش النعام ، حتى يشتعل بصره بالنار ، فينسى أنه يجب أن يطلق النار على العدو ... !

وعلى الرغم من اندفاع بيليبين فى حديثه ، لم يغفل أن يتوقف لحظة ، بعد كلمته تلك ، حتى يتاح لتقديرها الوقت الكافى .

— وتندفع الأورطة الفرنسية إلى رأس الجسر ويسدون أفواه المدافع فيعطلونها ، واذا بالجسر قد احتل ... !

واستأنف ، وقد انحسر انفعاله من أثر سروره بالحكاية التى يحكيها بنفسه :

— وأحسن مافى الموضوع أن الشاويش المسئول عن المدفع والمكلف باعطاء إشارة إشعال الألغام ونسف الجسر ، لما رأى القوات الفرنسية تجرى على الجسر ، كان على وشك إطلاق المدفع . لكن لانّ كف يده . وكان الشاويش فيما هو واضح أحكم من قائده الجنرال . فذهب إلى آورسبرج وقال له : «أيها الأمير . إنك يُغرر بك . الفرنسيون هنا ..!» وإذ يرى ميرا أن كل شىء سيضيع لو أتيح للشاويش أن يتكلم ، يلتفت إلى آورسبرج متظاهراً بالدهشة — فهو غسقونى أصيل — ويقول : « إنى لا أرى النظام النمسوى الشهير فى العالم أجمع . إذا كنت تسمح لتابع أن يكلمك بهذا الشكل . . !» تلك كانت ضربة عبقرية . فالأمير آورسبرج يحسّ أن كرامته فى الميزان . ويأمر بالقاء القبض على الشاويش.

هيا . عليك أن تقرّ بأن حكاية جسر تابور هذه لطيفة جداً ..! ليست غباءً ، ولا نذالة ...

قال الأمير أندرو وهو يتصور المعاطف الكبيرة الرماديّة ، والجراح ، ودخان بارود المدافع ، وصوت إطلاق النار ، والمجد الذي كان بانتظاره ، تصوراً باهراً :

— فقد تكون خيانة .

فأجاب بيليبين :

— ولا ذلك . فذلك يضع البلاط في ضوءٍ أسوأ مما ينبغي . ليست غباء . ولا نذالة . ولا خيانة . إنها بالضبط كما حدث في أولم ... إنها ...

ويلوح أنه يحاول أن يجد التعبير الصحيح :

— إنه .. إنه مِنْ ماك ؟ . نحن قد مُيكْكْنا .

وقد أحسّ أنه قد صاغ قَوْلةً جيدةً تؤثر ، كلمة جديدة سوف تُردّد . وعاد جبينه الذي كان حتى الآن مغضنا ، إلى نعومته ، دلالة على السرور . وأخذ يفحص أظافره بابتسامة هيّنة .

وقال فجأة للأمير أندرو الذي نهض واتجه إلى غرفته :

— إلى أين تذهب ؟

— ذاهب .

— إلى أين ؟

— إلى الجيش .

— لكنك كنت تنوي أن تقضي يومين آخرين ؟

— ولكني الآن ذاهب فوراً .

وبعد أن ألقى الأمير أندرو بتوجيهاته عن الرحلة ، ذهب إلى غرفته .

قال بيليبين ، وهو يتبعه :

— أتعرف يا عزيزي . إنني كنت أفكر بشأنك . لماذا تذهب ؟

وبرهانا على أن رأيه قاطع حاسم ، تلاشت الغضون جميعا من وجهه.

فنظر إليه الأمير أندرو متسائلا . ولم يجب .

— لماذا تذهب ؟ إننى أعرف أنك تظن من واجبك أن تعدو راجعا إلى الجيش الآن ، وهو فى خطر . إننى أفهم ذلك . يا عزيزى ، هذه بطولة ..!

قال الأمير أندرو :

— أبداً .

— ولكن حيث أنك فيلسوف ، فلتكن فيلسوفاً مستقيم التفكير ، وانظر إلى الجانب الآخر من المسألة ، وسترى أن واجبك ، بالعكس ، هو أن تُعنى بنفسك . دع ذلك لأولئك الذين لم يعودوا يصلحون لشىء آخر. . لم يصدر لك الأمر بالرجوع ، ولم يُؤذن لك بالانصراف من هنا . وإذن فتستطيع أن تبقى ، وتذهب معنا أنَّى قادنا سوء حظنا يقولون أننا ذاهبون إلى أولمتز . وأولمتز بلد حسن جداً . وسوف نسافر أنت وأنا ، بغاية الراحة ، فى عربتى .

فهتف بولكونسكى :

— كفَّ عن المزاح ، أرجوك يابيليبين ..

— إننى أتكلم بإخلاص، كصديق ..! فكّر ..! أين ولماذا تذهب ، فى حين تستطيع البقاء هنا ؟ يواجهك شيئان ...

وتغضنت جلدة وجهه فوق صدغه الأيسر :

— إما ألا تصل إلى فرقتك قبل أن يُعقد الصلح ، أو تقاسم جيش كوتوزوف كله الهزيمة والعار .

وبسط بيليبين من غضون صدغه ، وهو يحس أن الورطة لاحلّ لها فأجاب الأمير أندرو ببرود :

— لست أستطيع المجادلة فى ذلك .

وإن كان قد خطر له :

— سوف أنقذ الجيش .

قال بيليبين :

— يا صاحبي العزيز ، إنك بطل ..!

الفصل الثالث عشر

وفى تلك الليلة نفسها ، مضى بولكونسكى بعد أن استأذن وزير الحرب ، ليلحق بالجيش ، وهو لا يعرف أين سوف يجده ، ويخشى أن يأسره الفرنسيون فى الطريق إلى كرمس .

وكان كل من له صلة بالبلاط ، فى برون ، يحزم أمتعته ، وكان المتاع الثقيل يرسل بالفعل إلى أولموتز وبالقرب من هتزلسدورف ، خرج الأمير أندرو إلى الطريق الرئيسى الذى كان يتحرك عليه الجيش الروسى فى عجلة شديدة وفى أشد الفوضى . كان الطريق مكتظاً بعربات النقل حتى ليستحيل المرور به فى عربة سفر . فأخذ الأمير أندرو حصانا وجندياً قوزاقياً من قائد قوزاقى، وركب ، جائعاً ، مرهقاً ، يشق طريقه متجاوزاً عربات المتاع، يبحث عن قائده وعن متاعه الخاص . وبلغته ، وهو يمضى فى طريقه ، أخبارٌ رهيبة عن موقف الجيش ، وكان مظهر الجنود فى فرارهم الذى لا نظام فيه يؤيد هذه الأخبار .

« هذا الجيش الروسى الذى نقله ذهب انجلترا من أقاصى العالم ، سنذيقه نفس المصير — مصير جيش أولم . »

تذكّر الأمير أندرو هذه الكلمات من خطاب بونابرت إلى جيشه فى بدء الحملة ، فأثارت فيه الدهشة من عبقرية بطله ، وشعوراً بالكبرياء الجريح ، وأملاً فى المجد . وخطر له « فإن لم يبق شىء إلا الموت ؟.. حسناً ، إذا احتاج الأمر فسأفعل ذلك ، بما لا يقلّ فى شىء عن الآخرين . »

وكان ينظر بزراية وتعالٍ إلى الكتلة المضطربة التي لا نهاية لها من الفصائل، والعربات، والمدافع، وعربات العتاد، والعربات من كل نوع، تلاحق أحدها الآخر، وتسد الطريق الموحل، ثلاثا، أو أربعا منها أحياناً في صف واحد. ومن كل الجوانب، من الخلف ومن الأمام، وحتى يتناهى السمع، هناك كركرة العجلات، وصرير العربات وعربات المدافع، ووطء سنابك الخيل، وقرقعة السياط، والصيحات، وهتافات حثّ الخيل، وسباب الجنود، والمراسلات، والضباط. وكانت الخيل الساقطة تُرى على طول جانبي الطريق، وقد سلخ بعضها ولم يسلخ البعض، كما ترى عربات مكسورة جلس إلى جانبها جنود، وحدهم، ينتظرون، وجنودٌ آخرون قد تخلفوا عن فصائلهم، تمضي جماعات منهم إلى القرى المجاورة، أو تعود منها، يجرّون الخراف. والطيور، والتبْن، وأكياس منبعجة. وفي كل مرتفع أو منحدر من الطريق كانت الحشود أكثف، وضجيج الهتاف لا يكف. وكان الجنود يتعثرون حتى رُكبهم في الطين، وهم يدفعون المدافع والعربات بأنفسهم. والسياط تقرقع، والحوافر تنزلق، والعوارض تتكسر، والصدور مشدودة من الصياح. وكان الضباط الذين يوجهون الزحف يركبون إلى الخلف وإلى الأمام، بين العربات. ولم تكن أصواتهم تسمع إلا واهيةً ضعيفة وسط الضجيج، وكان يرى من وجوههم أنهم يائسون من إمكان كبح هذه الفوضى.

خطر لبولكونسكي، وهو يستعيد كلمات بيليبين:

— هذا جيشنا الروسيّ الأورثوذكسيّ العزيز.

وركب إلى إحدى قوافل النقل، ليتبيّن أين يوجد القائد العام. وجاءت قُبالته مباشرة عربةٌ غريبة، بحصان واحد، ومن الواضح أن الجنود ركّبوها وأقاموها من أي مواد وقعوا عليها، فهي تبدو شيئاً وسطاً بين عربة النقل، وعربة كابريوليه وعربة كاليش. وكان أحد الجنود

يقودها ، وجلست امرأة متلفعة فى شال خلف فاصل العربة وتحت غطائها الجلدى . وركب الأمير أندرو ، وكان على وشك توجيه سؤاله إلى جندى، عند ما اجتذبت اهتمامه صيحات المرأة اليائسة المستميتة فى العربة . كان أحد الضباط المسئولين عن النقل يضرب الجندى الذى كان يقود العربة ، لأنه حاول أن يسبق الآخرين ، وكانت ضربات سوطه تسقط على فاصل العربة . وكانت المرأة تصرخ صرخات ثاقبة . فلما رأت الأمير أندرو مالت إلى الخارج من وراء الفاصل ، ولوّحت بذراعيها المزيلتين من تحت الشال الصوفىّ ، وصاحت :

— ياسيّدى الياور ، ياسيّدى الياور ..! من أجل السماء ..! أحمنى ..! ماذا سيجرى لنا ؟ أنا زوجة طبيب فرقة القنّاصة السابعة .. ولا يريدون أن يدعونا نمرّ ، لقد تخلفنا ، وفقدنا أثرَ جماعتنا ..

فصاح الضابط المغضب بالجندى :

— سأسوّيك كالفطيرة ..! ارجع بهذه الفاجرة ..!

وصرخت زوجة الطبيب :

— سيدى الياور ، سيدى الياور .. ساعدنى ..! مامعنى هذا كله ..؟

قال الأمير أندرو وهو يركب إلى الضابط :

— دعْ هذه العربة تمرّ من فضلك . ألا ترى أنها امرأة ؟

فرمقه الضابط ، ولم يجب ، بل استدار إلى الجندى :

— سأعلمك كيف تسابق . . أرجع ..!

فكرر الأمير أندرو ، وقد ضغط شفتيه :

— دعهم يمرون ، أقول لك !

فصاح الضابط مستديراً إليه فى ثورة غضب السكارى :

— ومَنْ أنت ؟ من أنت ؟ أنت القائد هنا ؟ هيه ؟ أنا القائد هنا ، لا أنت !

وردّد :

— ارجع وإلا سوّيتك كالفطيرة .

كان هذا التعبير يسرّه فيما يظهر .

وجاء صوت من الخلف :

— ذلك ردّ مفحم ظريف للياور الصغير .

رأى الأمير أندرو أن الضابط كان فى حال لا يعى فيها شيئاً من غضب السكر ، حينما لا يدرى الرجل ما يقول . ورأى أن بطولته فى الدفاع عن زوجة الطبيب ، فى عربتها تلك الغريبة ، قد تعرضه لما يخشاه أكثر من أى شىء فى العالم ـ السخرية ، لكن غريزته كانت تحثه . فقبل أن ينهى الضابط عبارته ، ركب إليه الأمير أندرو ، وقد شاهت قسمات وجهه من الغضب ، ورفع سوطه :

— من فضـ . . . لك دعهم ... يمرون ..!

فشوّر الضابط بذراعه ، وابتعد متعجلا . وتمتم :

— إنه ذنب هؤلاء الناس فى أركان الحرب ، هذه الفوضى . افعل ما يحلو لك .

فركب الأمير أندرو مسرعاً ، دون أن يرفع عينيه، مبتعداً عن زوجة الطبيب ، التى كانت تدعوه منقذها ، وهو يستعيد ، بإحساس من الاشمئزاز ، تفاصيل هذا المشهد المذل الدقيقة ، وعدا إلى القرية التى قيل له أن القائد العام فيها .

فلما بلغ القرية نزل من على الجواد ، وذهب إلى أقرب بيت ، وهو ينوى الراحة ولو لحظـة ، وأن يأكل شيئا ، ويوضح الأفـكار اللاذعة المعذّبة التى تُـدخل الاضطراب على ذهنه . وكان يفكر وهو يذهب إلى نافذة أول بيت : « هذه غوغاء من الأنذال ، وليس جيشا » إذ سمع صوتا مألوفا يناديه بالاسم .

واستدار . كان وجه نسفيتسكى الوسيم يطل عليه من النافذة الصغيرة . وكان نسفيتسكى يحرك شفتيه الرطبتين وهو يمضغ شيئا ، ويشور بذراعه ، ويدعوه للدخول . ويصيح :

— بولكونسكى ! بولكونسكى .! ألا تسمع؟ هه ؟ تعال بسرعة...

فدخل الأمير أندرو البيت ، ورأى نسفيتسكى وملازما آخر يأكلان . والتفتا إليه بسرعة ، يسألان ما إذا كان لديه ثمّ أخبار . ورأى على الوجوه المألوفة اهتياجا وقلقا . وذلك على الأخص فى محيا نسفيتسكى الضاحك عادةً .

سأل بولكونسكى :

— أين القائد العام ؟

فأجاب الملازم :

— هنا ، فى ذلك البيت .

وسأل نسفيتسكى :

— حسناً ، أصحيح أنه الصلح والتسليم ؟

— كنتُ أوشك أن أسألك . لستُ أعرف شيئا ، إلا أنى بذلت كل ما فى وسعى حتى أصل إلى هنا .

قال نسفيتسكى :

— ونحن ، يا ولدى العزيز ..! هذا فظيع ..! كنتُ مخطئا إذ ضحكت على ماك . فنحن نلقاها أسوأ منه . ولكن اجلس ، وكل شيئا .

وقال الملازم الآخر :

— لن تستطيع أن تجد لا متاعك ، ولا أى شىء آخر ، أيها الأمير . والله يعلم أين رجُلك بيتر .

— أين القيادة العامة ؟

— سنقضى الليلة فى زنايم .

قال نسفيتسكى :

— حسناً ، عبأت كل ما أحتاج فى طرود يحملها حصانان . وقد حزموا لى الطرود بشكل مدهش ، حتى لتليق أن أعبر بها جبال بوهيميا . المستقبل سيىء يا صاحبى . . ! ولكن ماذا دهاك ؟ لا بد أنك مريض حتى أنك ترتجف هكذا .

وقد لاحظ أن الأمير أندرو يرمش عينيه كما لو كان من أثر صدمة كهربية .

فأجاب الأمير أندرو :

— هذا لاشىء .

كان قد تذكر لقاءه القريب بزوجة الطبيب وضابط النقل . وسأل :

— ماذا يفعل القائد العام هنا ؟

قال نسفيتسكى :

— لا أستطيع أن أفهم .

قال الأمير أندرو :

— وكل ما أستطيع أن أفهم، أن كل شىء فظيع مقيت ، مقيت جدا !

ومضى إلى البيت الذى كان فيه القائد العام .

ومر الأمير أندرو بعربة كوتوزوف ، وجياد ركوب مرافقيه المنهوكة، والقوزاقيين الذين يتكلمون معاً بصوت مرتفع ، ودخل إلى الممر . وقيل له أن كوتوزوف بنفسه كان فى البيت مع الأمير باجراتيون وفيروتر . كان فيروتر هو الجنرال النمسوى الذى خلف شميدت. وفى الممر كان كوزلوفسكى الصغير قاعداً القرفصاء على كعبيه أمام كاتب. وكان الكاتب وقد شمر أكمامه ، يكتب فى عجلة على حوض قلب قعره إلى أعلى . وكان وجه كوزلوفسكى يبدو منهكا — هو أيضا فيما هو واضح لم ينم طيلة ليلته . ورمق الأمير أندرو ولم يومىء إليه حتى برأسه .

وواصل إملاءه على الـكاتب :

ـــ الصف الثانى.. هل كتبت..؟ وفرقة كييف للرماية، وبوروليان..

قال الـكاتب وهو يرمق كوزولوفسكى بغضب ومن غير احترام :

ـــ لا يستطيع المرء أن يـكتب بهذه السرعة ياصاحب السعادة .

وجاء من البـاب صوت كوتوزوف يتكلم منفعلا وفى غير رضاء ، يقاطعه صوت آخر غير مألوف . ومن هذه الأصوات ، والطريقة التى نظر إليه بها كوزولوفسكى بغير انتباه ، وسلوك الـكاتب الذى لا احترام فيه ، وواقعة أن الـكاتب وكوزولوفسكى كانا يقعدان القرفصاء على الأرض ، أمام حوض ، بهذا القرب من القائد العام ، ومن ضحك القوزاقيين المرتفع وهم يمسكون بالخيل بالقرب من النافذة . من ذلك كله أحس الأمير أندرو أن شيئا هاما ، أن كارثة توشك أن تقع .

والتفت إلى كوزلوفسكى بأسئلة ملحة .

قال كوزلوفسكى :

ـــ حالا أيها الأمير . «مواقع باجراتيون ...

ـــ ماذا عن التسليم ؟

ـــ لاشىء من هذا . الأوامر تصدر بالمعركة .

تحرك الأمير أندرو فى اتجاه الباب الذى تسمع منه الأصوات ، وانفتح البـاب ، وظهر فيه كوتوزوف بأنفـه الذى يشبه أنف النسر . ووجهه المنتفخ . كان الأمير أندرو يقف مباشرة أمام كوتوزوف ، ولـكن النظرة فى عين القائد العام السليمة الواحدة كانت تنم عن أنه منشغل بالأفـكار والهموم حتى أنه ذاهل عن وجوده تماما . نظر مواجهة إلى وجه الياور دون أن يتعرف إليه . وقال لـكوزلوفسكى :

ـــ حسناً ، هل انتهيت ؟

ـــ لحظة واحدة ياصاحب السعادة .

وخرج بعد القائد العام ، باجراتيون . رجل ربعة نَحَف ، مشدود ، وجهه حازم سلبي ، من النمط الشرقي .

ردّد الأمير أندرو بصوت أميل إلى الارتفاع ، وهو يعطى كوتوزوف مظروفا .

— لى الشرف بأن أقدم نفسى .

— آه من ڤيينا ؟ حسناً جداً . فيما بعد ، فيما بعد !

وخرج كوتوزوف إلى الشرفة مع باجراتيون . وقال لباجراتيون :

— حسنا أيها الأمير ، إلى اللقاء . إنى أباركك ، وأدعو المسيح أن يكون معك فى عملك العظيم !

ورقّ وجهه فجأة ، وجاءت الدموع إلى عينيه . وجذب باجراتيون ، بيده اليسرى إليه ، وبيده اليمنى التى كان يلبس بها خاتما ، رسم عليه علامة الصليب بحركة واضحٌ أنها مألوفة إليه ، وهو يقدم له خده المنتفخ ، ولكن باجراتيون قَبَّلهُ على العنق .

وردّد كوتوزوف :

— فليكن المسيح معك !

واتجه إلى عربته ، وقال لبولكونسكى :

— ادخل معى .

— ياصاحب السعادة : إننى أحب أن أكون ذا فائدة هنا . إسمح لى أن أبقى مع فرقة الأمير باجراتيون .

فقال كوتوزوف :

— ادخل .

فلما لاحظ أن بولكونسكى مازال يتلكأ ، أضاف :

— إننى أحتاج لضباط مَهرة بنفسى . أحتاج لهم بنفسى ... !

دخلا العربة ، وركبا بضع لحظات صامتين .

وقال ، كما لو كان قد فهم ، بنفاذ بصيرة الشيوخ ، كل ما كان يمرّ بذهن بولكونسكي :

— ما زال هناك أمامنا الكثير ، الكثير .

وأضاف ، كما لو كان يحادث نفسه :

— لو أن عُشر فرقة عادت ، شكرتُ الله .

فرمق الأمير أندرو وجه كوتوزوف الذى لا يبعد عنه ، إلا مسافة شِبْر ولاحظ ، عن غير اختيار ، غُرز الندب بالقرب من صدغه ، مغسولة بعناية ، حيث كانت رصاصة فى حرب اسماعيل قد اخترقت جمجمته ، ومحجر العين الخاوى . وخطر لبولكونسكي :

— نعم ، ان له لحقاً فى أن يتكلم بهذا الهدوء عن موت هؤلاء الرجال ...

وقال :

— لذلك ألتمس أن أرسل إلى تلك الفرقة .

فلم يجب كوتوزوف . وبدا أنه نسى ما كان يقول ، وجلس غارقا فى الفكر . وبعد خمس دقائق ، وهو يهتز اهتزازاً هيّنا على مفصّلات العربة ، التفت إلى الأمير أندرو . لم يكن فى وجهه أثر للاهتياج . وسأل الأمير أندرو ، بسخرية رقيقة ، عن تفاصيل مقابلته للامبراطور . وما سمع من تعليقات فى البلاط عن مسألة كرمس ، وعن بعض السيدات اللائى يعرفانهن ، كلاهما .

الفصل الرابع عشر

فى أول نوفمبر تلقى كوتوزوف ، من أخبار أحد الجواسيس ، أن الجيش الذى يقوده فى موقف يوشك أن يكون لا أمل فيه . وبلّغ الجاسوس أن الفرنسيين ، بعد أن عبروا الجسر عند فيينا ، كانوا

يتقدمون . فى قوات هائلة . إلى خط مواصلات كوتوزوف مع القوات التى تأتى من روسيا . فاذا قرر كوتوزوف أن يبقى عند كرمس ، قطعه جيش نابليون المكوّن من مائة وخمسين ألف رجل تماما وأحدق بجيشه المنهك المكون من أربعين ألفا ، ووجد كوتوزوف نفسه فى موقف ماك عند أولم . أما إذا قرّر كوتوزوف أن يترك الطريق الذى يوصله بالقوات الآتية من روسيا ، كان عليه أن يزحف ، دون طريق ممهد ، فى مناطق مجهولة من جبال بوهيميا ، مدافعا عن نفسه إزاء قوات العدو التى تفوقه ، ومتخليا من كل أمل فى الانضمام إلى قوات أخرى ، فى بوكسهويدن . وإذا قرّر كوتوزوف أن يتقهقر على الطريق من كرمس إلى أولمتز ، حتى يتحد بالقوات الآتية من روسيا ، خاطر بأن يسبقه الفرنسيون على هذا الطريق ، وقد عبروا جسر ڤيينا ، واضطر أن يدخل المعركة ، مثقلا بعتاده وقوافل مواصلاته ، فى أثناء سيره، ضد عدو أقوى منه ثلاث مرات سوف يحيط به من جانبين .

فاختار كوتوزوف السبيل الأخيرة .

وبلّغ الجاسوس أن الفرنسيين بعد أن عَبروا جسر ڤيينا ، كانوا يتقدمون ، فى زحف جبرىّ ، نحو زنايم ، التى كانت تقع على بعد مائة فيرست، من خط تقهقر كوتوزوف ، فاذا بلغها كوتوزوف قبل الفرنسيين كان هناك أمل كبير فى إنقاذ الجيش . أما إذا ترك الفرنسيين يسبقونه إلى زنايم ، فمعنى ذلك أن يتعرض جيشه بأكمله لعار مثل عار أولم ، أو للهلاك التام . ولكن كان من المستحيل أن يسبق الفرنسيين بجيشه كله . كان طريق الفرنسيين من ڤيينا إلى زنايم أقصر وأفضل من طريق الفرنسيين من كرمس إلى زنايم .

وفى الليلة التى تلقى فيها كوتوزوف هذه الأخبار ، أرسل طليعة قوات باجراتيون ، من أربعة آلاف رجل ، إلى اليمين عَبْر التلال الواقعة بين

طريق كرمس زنايم ، وطريق ڤيينا زنايم كان على باجراتيون أن يقوم بهذا الزحف دون راحة . وأن يقف مواجها ڤيينا ، وإلى مؤخرته زنايم . فإذا نجح فى أن يسبق الفرنسيين ، كان عليه أن يؤخرهم ، طالما وسعه ذلك أما كوتوزوف نفسه . وكل عتاد مواصلاته . فقد أخذ الطريق إلى زنايم .

وزحف باجراتيون ثلاثين ميلاً تلك الليلة العاصفة ، عبر تلال لا طُرُق فيها ، بجنوده الجائعين الحلقى الملابس ، وفقد ثلث رجاله متخلفين بالطريق ، وطلع إلى طريق ڤيينا — زنايم عند هولابرون ، على مسيرة بضع ساعات قبل الفرنسيين الذين كانوا يقتربون من هولابرون ، آتين من ڤيينا . وكان على كوتوزوف ، ومواصلاته ، أن يزحف بضع أيام قبل أن يستطيع الوصول إلى زنايم . ومن ثمّ فقد كان على باجراتيون ، بالأربعة آلاف من رجاله الجائعين المنهكين ، أن يؤخر جيش العدو بأكمله الذى سوف يقع عليه عند هولابرون ، أياماً عديدة ، وكان ذلك واضح الاستحالة . لكن ضربة من القدر أحالت المستحيل ممكناً . ذلك أن نجاح الخدعة التى وضعت جسر ڤيينا فى يدى الفرنسيين دون قتال ، أفضت بميرا أن يعالج خداع كوتوزوف بطريقة مماثلة . فلما التقى بفرقة باجراتيون الضعيفة على طريق زنايم ، افترضها جيش كوتوزوف بأكمله . وحتى يستطيع أن يسحقه تماما ، انتظر وصول باقى القوات التى كانت فى طريقها ، آتية من ڤيينا ، وبهذا الغرض ، اقترح هدنة ثلاثة أيام ، بشرط أن يبقى الجيشان كلاهما ، فى مواقعهما ، دون تحرّك . وأعلن ميرا أن مفاوضات الصلح جارية بالفعل ، وأنه من ثمّ يقترح هـذه الهدنة حقناً للدماء أن تسفح بلا ضرورة . أما الكونت نوستيتز ، الجنرال النمسوى ، الذى كان يحتل المواقع الأمامية ، فقد صدّق رسول ميرا ، وتقهقر ، وترك فرقة باجراتيون مكشوفة . وركب رسولٌ آخر إلى الخطوط الروسية ليعلن عن مفاوضات الصلح ،

ويعرض على الجيش الروسى هدنة ثلاثة أيام . فأجاب باجراتيون أنه ليس مخوّلاً أن يقبل أو يرفض الهدنة ، وأرسل ياوره إلى كوتوزوف ليبلغ العرض الذى تَلقَّاه .

كانت الهدنة هى فرصة كوتوزوف الواحدة ليكسب وقتاً ، ويعطى قوات باجراتيون المنهكة بعض راحة ، ويدع خطوط النقل والقوافل الثقيلة — التى كانت حركاتها مخبوءة عن الفرنسيين — تتقدم . ولو بمرحلة واحدة ، أقرب إلى زنايم . كان عرض الهدنة هو الفرصة الوحيدة ، التى لم تكن بالمنتظرة إطلاقاً ، لإنقاذ الجيش . فلما تلقى الأخبار أرسل الجنرال ڤينتز ينجيرود ، الذى كان يرافقه ، للتو ، إلى معسكر العدو . لم يكن على ڤينتز نيجيرود أن يقبل الهدنة فحسب ، بل أن يعرض شروط التسليم ، وفى هذه الأثناء أرسل كوتوزوف ياوره راجعا ليعجل ، بأقصى ما يسعه ، من حركة قوافل عتاد الجيش بأكمله على طريق كرمس — زنايم . وكان على فرقة باجراتيون المنهكة الجائعة التى تغطى وحدها حركة النقل هذه وتغطى الجيش بأكمله ، أن تبقى فى مواقعها ، فى مواجهة عدو يفوقها عدداً بثمانى مرات .

وصح توقع كوتوزوف أن اقتراحات التسليم — التى لم تكن ملزمة بحال — قد تتيح بعض الوقت لمرور جانب من قوافل النقل ، وأن خطأ ميرا سوف يكتشف سريعاً جداً . فما أن تلقى بونابرت — الذى كان فى شونبرون ، على ستة عشر ميلاً من هولابرون — رسالة ميرا باقتراح الهدنة والتسليم ، حتى اشتم الخدعة ، وكتب الرسالة التالية إلى ميرا :

شونبرون فى ٢٥ برومير ١٨٠٥

الساعة الثامنة صباحا

إلى الأمير ميرا

لا أستطيع أن أجد كلمات تعبّر عن استيائى . أنت تقود طليعة قواتى

فقط ، ولا حقَّ لكَ في أن تسوِّي هدنة دون أمرى . إنك تتسبب في فقدانى ثمار حملة ..! أحرق الهدنة فوراً وازحف على العدو . وقل له أن الجنرال الذى وقّع ذلك التسليم لم يكن له الحق في أن يفعل ، وأن أحدا غير إمبراطور روسيا ، ليس له هذا الحق .

أما إذا صدّق إمبراطور روسيا مع ذلك على هذا الاتفاق ، فسأصدق عليه ، لكنه ليس إلا خدعة .. فأنت في موقع يتيح لك الاستيلاء على عتاده ومدفعيته

إن ياور الامبراطور الروسىّ نصّابٌ مُدعٍ . ليس الضباط بشيء عند ما لا يملكون سلطة ما ، وليس لهذا الضابط سلطة . لقد ترك النمسويون أنفسهم يُغرر بهم عند عبور جسر ڤيينا ، وأنت يُغرر بك من ياورٍ للامبراطور .

نابليون

وركب ياور نابليون ، يَعدو بأقصى سرعة ، ومعه هذا الخطاب المتوعد لميرا . ولم يثق بونابرت في جنرالاته ، فتحرّك بنفسه مع كل الحرس ، إلى ساحة القتال ، خشية أن يدَع ضحية سهلة تفلت منه ، وأضاء رجال باجراتيون الأربعة آلاف مواقد المعسكر ، في مرح ، وجففوا وأدفأوا أنفسهم ، وطهوا عصيدتهم للمرة الأولى منذ ثلاثة أيام ، ولم يعرف واحدٌ منهم ، ولا كان يتصور ، ماذا بانتظارهم من مصير .

الفصل الخامس عشر

وصل الأمير أندرو ، بعد أن ألح مثابراً على طلبه إلى كوتوزوف ، بين الثالثة والرابعة بعد الظهر ، إلى جرونت . وبلغ عن نفسه إلى باجراتيون . لم يكن ياور بوناپرت قد بلغ فرقة ميرا ، ولا المعركة قد بدأت بعد . وفى فرقة باجراتيون لم يكن أحد يدرى شيئاً عن الموقف العام للأمور . كانوا يتكلمون عن الصلح ، ولكنهم لايعتقدون إمكانه . ويتكلم آخرون عن معركة ، وإن كانوا لا يعتقدون ، كذلك ، فى اشتباك قريب . وكان باجراتيون يعرف أن بولكونسكى ياور موثوق به ، أثير . فاستقبله استقبالا ممتازاً . وأبدى إزاءه علامات التكريم الخاصة ، وشرح له أن عساه يحدث اشتباك يومها أو من الغد ، وأعطاه ملء الحرية أن يبقى معه أثناء الموقعة ، أو ينضم للمؤخرة ، ليرقب نظام التقهقر ، « وهو هام جداً كذلك » .

وقال باجراتيوان ، كما لو كان يدخل الطمأنينة على الأمير أندرو .

— إلا أنه لن يحدث ثمّ اشتباك اليوم .

كان فى فكر باجراتيون « إذا كان واحداً من رقعاء الأركان الصغار المألوفين ، أُرسل به حتى يكسب نيشاناً ، فنى وسعه أن يحصل على مكافأته فى المؤخرة أيضاً . أما إذا أراد أن يبقى معى . فليبق ... سيكون ذا فائدة هنا ، إن كان ضابطا شجاعا . »

وطلب الأمير أندرو ، دون أن يجيب ، إذن الأمير ليركب حول الموقع ، حتى يرى مراكز القوات ، ويعرف أين يتجه ، فيما لو أرسل لتنفيذ أحد الأوامر . وعرض الضابط المكلف بالخدمة أن يقود الأمير أندرو . وكان رجلا وسيما أنيق الملبس . فى إصبعه خاتم ماسى ، مغرماً بالحديث بالفرنسية ، على ركاكة فرنسيته .

وفى كل الجوانب رأيا ضباطا أغرقهم المطر . وجوههم كئيبة هابطة ، يلوح أنهم يبحثون عن شيء ما . وجنوداً يجُرّون من القرية أبوابا ومقاعد خشبية وأسواراً .

قال ضابط الأركان مومئاً إلى الجنود :

— هأنت ترى ، أيها الأمير ..! لا نستطيع أن نكف هؤلاء الناس . والضباط لا يحافظون ، معهم ، على النظام .

وأشار إلى خيمة أحد باعة الطعام والشراب :

— وهنالك يتزاحمون ويجلسون . طردتهم جميعا هذا الصباح . فانظر الآن . ها هى ذى الخيمة ممتلئة ثانية . يجب أن أذهب هناك أيها الأمير ، وأخوّفهم قليلا . لن يستغرق ذلك لحظة .

فقال الأمير أندرو ، وقد كان لم يتح له الوقت بعد أن ينال شيئا من طعام :

— نعم . فلندخل ، وسأتناول رغيفا وشيئا من الجبن .

— لماذا لم تقل شيئا أيها الأمير ؟ كنتُ قدمتُ لك شيئا .

فترجلا . ودخلا الخيمة . كان يجلس إلى المائدة عددٌ من الضباط ، وجوههم كليلة مضرجة ، يأكلون ويشربون .

قال ضابط الأركان ، بتلك النبرة العاتبة لرجلٍ كرر شيئا أكثر من مرة :

— ما معنى هذا الآن ياسادة ؟ أنتم تعرفون أنه لايصح أن تتركوا مراكزكم بهذا الشكل ، أصدر الأمير أوامره بألا يترك أحد مركزه .

واستدار إلى ضابط مدفعية نحيل صغير قذر ، نهض ، عندما دخلا ، يرتدى جواربه فقط ، وبدون حذائه — فقد كان أعطاه لصاحب الكانتين كى يجففه — وكان يبتسم غير مستريحٍ كل الراحة .

— وأنت يا كابتن الآن ، حسنا ، ألا تخجل من نفسك يا كابتن

توشين ؟ يظن المرء أنك ، وأنت ضابط مدفعية ، تضرب مثلا طيبا يُحتذَى ، ومع ذلك فهأنت هنا ، وبدون حذاء ..! فإذا أطلق نفير الخطر ، وجدت نفسك فى موقف ظريف ، دون حذائك ..!

وابتسم ضابط الأركان ، وأضاف بلهجة الأمر :

ـــ عودوا إلى مراكزكم ياسادة ، من فضلكم ، جميعا ..!

وابتسم الأمير أندرو ، بالرغم منه ، وهو ينظر إلى ضابط المدفعية توشين ، الذى كان يرمق الأميرأندرو، ثم ضابط الأركان ، متسائلا ، بعينيه الواسعتين الذكيتين الودودتين ، صامتاً وباسماً يقف على إحدى قدميه ، فى الجورب ، ثم على الأخرى .

قال الكابتن توشين ، مبتسما بخجل ، فى موقفه غير المريح ، وواضح أنه يبغى أن يتخذ لهجة ممازحة :

ـــ يقول العساكر أنه أريح دون حذاء .

لكنه قبل أن يكمل عبارته ، أحس أن نكتته غير مقبولة ، وأنها لم تنجح . فاضطرب ، وارتبك .

قال ضابط الأركان معالجا أن يُبقى على رصانته :

ـــ عودوا إلى مراكزكم من فضلكم .

ورمق الأمير أندرو ، ثانيةً ، قامة ضابط المدفعية الصغير . كان فى قامته شىء غريب ، لا صلة له بالعسكرية ، وأميل إلى الهزل ، ولكنه جذّاب للغاية .

وامتطى ضابط الأركان والأمير أندرو جواديهما . وواصلا ركوبهما .

فلما ركبا حتى جاوزا القرية ، وهما يلقيان باستمرار ، ويتجاوزان ، جنوداً وضباطا من شتى الفرق ، رأيا إلى يسارهما بعض الخنادق تُحفَر ، والطين الحديث العهد المحفور منها يبدو أحمر اللون . وكانت سرايا عديدة

من الجنود ، لا يلبسون إلا قمصانهم ، على الرغم من الرياح الباردة ، يتزاحمون فى هذه الحفر الأرضية ، كأنهم أسراب من النمل الأبيض ، ويُقذف من الأرض بملء مجارف من الطين الأحمر ، باستمرار، من خلف الحاجز، تقذف بها أيد خفيّة . وركب الأمير أندرو والضابط إليها ، ونظرا إلى الخنادق ، ومضيا فى طريقهما . فوقعا خلف الخنادق مباشرة ، على بضع عشرات من الجنود ، يبدلون باستمرار ، يجرون من الخنادق . كانوا مضطرين أن يمسكوا بأنوفهم ، وأن يطلقوا جيادهم تجرى خَبَباً ، حتى يفلتوا من الجو المسموم فى هذه المراحيض .

قال ضابط الأركان بالفرنسية .

ـــ تلك متع حياة المعسكر ، أيها الأمير .

وركبا إلى التل المقابل . ومن هناك كان بالوسع من الآن رؤية الفرنسيين . ووقف الأمير أندرو ، وأخذ يتفحص الموقع .

قال ضابط الأركان مشيراً إلى أعلى نقطة :

ـــ هذه بطاريتنا . ويعهد بها إلى ذلك الشخص الغريب الذى رأيناه دون حذاء . وتستطيع من هناك أن ترى كل شىء . فلنذهب هناك أيها الأمير .

فقال الأمير أندرو ، وقد أراد أن يخلص نفسه من رفقة ضابط الأركان هذا :

ـــ أشكرك شكراً جزيلا . أرجوك لاتتعب نفسك أكثر من ذلك .

وبقى ضابط الأركان ، بينما ركب الأمير أندرو وحده .

وكلما ابتعد ، فدنا من العدو ، زاد النظام والبهجة بين صفوف القوات . كان أشد الفوضى والهبوط فى قوافل العتاد التى مر بها ذلك الصباح على طريق زنايم ، على بعد سبعة أميال من الفرنسيين . وكان من الممكن أن يحس شيئاً من الخوف والقلق فى جرونت . على أنه كلما اقترب الأمير أندرو

من الخطوط الفرنسية ، ازداد مظهر الثقة بالنفس على جنودنا . كان الجنود في معاطفهم الكبيرة ، مصفوفين طوابير ، والشاويشية وضباط السرايا يعدون العساكر ، ويلكزون آخر رجل في كل قطاع ، في ضلوعه ، يأمرونه بأن يرفع يده . وكان الجنود ، متناثرين في كل مكان ، يَجُرّون جذوع الأشجار والخشب المقطوع ، ويقيمون المخابئ ، وهم يثرثرون ويضحكون في مرح ، وجلس البعض الآخر حول نيران المواقد ، لابسين أو غير لابسين ، يجففون قمصانهم وأشرطة سيقانهم ، ويصلحون من أحذيتهم أو معاطفهم الكبيرة ، متزاحمين حول الغلايات وأواني طهو العصيدة . وكان العشاء قد أعد ، في إحدى السرايا ، والجنود يُحدقون بشغف إلى الغلاية التي يتصاعد منها البخار ، ينتظرون أن يتم تذوق العيّنة التي كان يحملها صول تعيين في مغرفة خشبية ، إلى ضابط جالسٍ على جذع من الخشب أمام مخبئه .

أما سرية أخرى فقد كانت حسنة الحظ ، إذ لم يكن عند السرايا جميعاً فودكا . فكانت تزاحم حول شاويش عريض المنكبين ، منقط الوجه بالجدري ، يُميل قدراً ويملأ أغطية الكانتين التي تقدم إليه واحداً بعد الآخر . وكان الجنود يرفعون أغطية الكانتين إلى شفاههم ، بوجوه عليها رصانة التوقير والإجلال ، ويفرغونها ، فتنساب الفودكا في حلوقهم، ويعضون عن صول التعيين ،وقد استضاءت وجوههم ، يلعقون شفاههم ، ويمسحونها على أكمام معاطفهم الكبيرة . وكانت وجوههم جميعاً على مظهرٍ من السكينة والسلام ، كما لو كان ذلك يجري في الوطن ، في انتظار ضرب المعسكر بسلام لقضاء الليل ، ولا يحدث على مشهدٍ من العدو قبل معركة سوف يُترك نصفهم فيها ، على الأقل في أرض الميدانَ . وبعد أن مر الأمير أندرو بفصيلة من القناصة ، وبينما يمر في صفوف رماة كييف — وكانوا أولاداً مدهشين ، منشغلين بأمور هادئة مماثلة — وبالقرب

من مخبأ قائد الفصيلة ، وقد أقيم أعلى من المخابىء الأخرى ، ومغايراً لها .

طلعَ الأمير أندرو أمام طابور من الرماة كان يرقد أمامهم رجلٌ عارٍ . وكان يمسك به جنديان ، بينما يشهر آخران عصيّيهما ويضربانه بانتظام على ظهره العارى . وكان الرجل يصرخ صرخات غير طبيعية . وكان هناك صاغ بدين يذرع المكان جيئة وذهوبا أمام الصف ، ويردد باستمرار دون أن يُلقى للصرخات بالاً :

— من العار أن يسرق الجندى . يجب أن يكون الجندى أميناً ، شريفاً ، وشجاعا . أما إذا سرّق زملاءه فلا شرف عنده ، فهو وغدٌ ..! استمروا ..! استمروا ..!

ومن ثم استمر صوت حفيف ضربات العصا ، والصرخات المستميتة ، غير الطبيعية .

قال الصاغ :

— استمروا ..! استمروا ..!

وأقبل ضابط صغير ، تبدو على مظهره الحيرة والألم ، فخطا بعيداً عن الرجل ، ونظر إلى الياور متسائلا ، وهو يركب إلى جانبهم .

فلما وصل الأمير أندرو إلى الخط الأمامى ، ركب ماراً به ، كان خطّنا الأمامى وخط العدو الأمامى ، متباعدين عند الجناحين الأيمن والأيسر ، أما فى الوسط ، حينما مر الرجال ، بأعلام الهدنة ، ذلك الصباح ، فقد كان الخطين من القرب ، بحيث كان الرجال يستطيعون أن يروا وجوه بعضهم البعض ، وأن يتبادلوا الحديث . وفضلا عن الجنود الذين يتكون منهم صف الحرس ، فى كل من الجانبين ، كان هناك الكثير من المتطلعين الفضوليين ، يضحكون ويمزحون ، ويحدقون إلى أعدائهم الأجانب الغرباء .

ومنذ الصباح الباكر ، وبالرغم من التعليمات بعدم الدنوّ من خط

الحرس ، كان الضباط عاجزين أن يبعدوا المتفرجين . وكان الجنود الذين يكوّنون خط الحرس ، كرجال المسرح الذين يعرضون شيئا طريفاً ، لاينظرون إلى الفرنسيين ، بل يهتمون بالمتفرجين ، وقد لحقهم الكلال بانتظار تغيير دوريتهم .

كان أحد الجنود يقول لآخر ، مشيراً إلى أحد حمَلة البنادق الروس ، وقد ذهب إلى خط الحرس ، مع ضابط ، وكان يتكلم بانفعال وسرعة إلى أحد الرماة الفرنسيين :

— أنظر ..! أنظر .! اسمعه يرطن ...! مدهش ، أليس كذلك ؟ لايكاد الفرنساوى يلاحقه . هيه ، سيدوروف ..!

فأجاب سيدوروف ، وكان يُعتبر خبيراً بالفرنسية :

— انتظر واسمع . هذا مدهش ..!

أما الجندى الذى كان الضاحكان يُشيران إليه ، فكان دولوخوف . عرفه الأمير أندرو ، فوقف يصغى إلى ما كان يقول . كان دولوخوف قد جاء من الجناح الأيسر ، حيث كانت ترابط فصيلته ، مع كابتن فصيلته .

وحثّه الضابط ، منحنياً إلى الأمام ، معالجاً ألا تفلت منه كلمة من الحديث الذى لايفهم منه شيئا :

— هيّا ، استمر ، استمر ..! أكثر من فضلك ، أكثر ..! ماذا يقول ؟

فلم يجب دولوخوف سؤال الكابتن ، كان قد دخل فى مناقشة حامية مع الجندى الفرنسى . كانا بالطبع يتكلمان عن الحملة . وكان الفرنسى يخلط بين النمسويين والروس ، فكان يحاول أن يُبرهن على أن الروس قد سلمّوا ، وهربوا على طول الطريق ، من أولم ، بينما كان دولوخوف يقول أن الروس لم يسلموا ، بل هزموا الفرنسيين :

قال دولوخوف :

— عندنا أوامر بأن نطردكم من هنا ، وسنطردكم .

فقال الجندى الفرنسى :

— بل أحرص أولا ألا تؤسروا أنتم وأصحابكم القوزاق جميعا ..!

فضحك المتفرجون والسامعون الفرنسيون .

قال دولوخوف :

— سنرقّصكم كما رقصتم فى أيام سوفوروف .

فسأل أحد الفرنسيين :

— عَمَّ يحكى ؟.

قال آخر ، وقد حدس أنه يشير إلى حرب سابقة :

— هذا تاريخ عتيق . سيعلم الامبراطور أصحابكم سوفارا هؤلاء ، كما علم الآخرين درسا ...

فبدأ دولوخوف :

— بونابرت ...

لكن الفرنسى قاطعه :

— ليس بونابرت ، بل هو الامبراطور ..!

وهتف بغضب .

— يا إلهى ..!

— فليسلخ الشيطان جلد امبراطوركم .

فشتمه دولوخوف بروسية الجنود المقذعة ، ورفع بندقيته إلى كتفه ، وابتعد .

وقال للكابتن :

— دعنا نمضى ، يا إيفان لوكيتش .

قال جنود الحرس :

— آه .. هذا ، كيف ينبغى أن يتكلم المرء الفرنسية . والآن

سيدوروف . حاول ..!

فاستدار سيدوروف الى الفرنسي . وغمز . وأخذ يرطن بأصوات لا معنى لها بسرعة فائقة ، معالجا أن يكسب صوته نبرة معبّرة :

— كارى مالاتافا سافى موتير كاسكا .

فانطلقت من الجنود قهقهات من الضحك الطيّب الطبيعى :

— هو هو هو !! ها ها ها ..!! أووه أووه ..!

فانتقلت العدوى ، عن غير اختيار ، إلى الفرنسيين ، وبلغ من ذلك ، حتى بدا أن الشئ الوحيد الباقى أن تفرغ البنادق ، وتفجر المؤن ، ويعود الجميع إلى بيوتهم ، بأسرع ما يمكن .

لكن البنادق بقيت معبأة ، وكانت الفتحات فى الخنادق والمخابىء تبدو على حالها من الوعيد والتهديد ، والمدافع التى أنزلت من على عجلاتها بقيت تواجه أحدها الآخر ، شأنها من قبل .

الفصل السادس عشر

بعد أن ركب الأمير أندرو حول الخط بأكمله ، من الجناح الأيمن إلى الجناح الأيسر ، اتخذ طريقه إلى البطارية التى قال له ضابط الأركان أنه بالوسع منها رؤية الميدان كله . وهنالك ترجل ، ووقف بجانب أقصى المدافع الأربعة التى أنزلت على الأرض من على عجلاتها . وكان حرس المدفعية يذرع الأرض جيئة وذهوباً ، أمام المدافع ، ووقف انتباها ، عند ما وصل الضابط ، ثم استأنف ، باشارة منه ، خطوة المنتظم الرتيب . وكان خلف المدافع حواملها بعجلاتها ، وخلف هذه حبال الحراسة ومواقد رجال المدفعية . وإلى اليسار ، غير بعيد عن أقصى مدفع ، كوخ من أغصان السنط ، صغير ، حديث البناء ، كانت تأتى عنه أصوات الضباط فى حديث به لهفة وشغف .

كان صحيحاً أن مشهد كل الموقع الروسى تقريبا ، والجانب الأكبر من موقع العدو ، ينفتح هنا من هذه البطارية وكان بالوسع أن يرى فى مواجهته مباشرة ، على قمة التل المقابل، قرية شون جرابير. وترى القوات الفرنسية فى ثلاثة أماكن إلى اليسار واليمين ، بين دخان مواقدها ، وكان واضحا أن الجزء الأكبر منها فى القرية نفسها وفيما وراء التل . وكان إلى يسارالقرية ، وسط الدخان ، شىء يشبه بطارية ، وإن كان يستحيل رؤيته بوضوح بالعين المجردة . وكان جناحنا الأيمن يتخذ موقعه على منحدر أميل إلى الوعورة ، يسيطر على الموقع الفرنسى . كانت مُشاتنا مرابطة هناك ، وبعدها على الجانب الأقصى فرسان الدراجون . وكان يقع فى الوسط حيث قامت بطارية توشين ، وحيث كان الأمير أندرو يمسح الموقع ببصره ، أسهل وأخصر مرتقًى ومنحدر إلى الجدول الذى يفرقنا عن شون جرابيرن . وإلى اليسار كانت قواتنا قريبة من غابة صغيرة تدخن منها نيران مواقد مشاتنا الذين كانوا يسقطون الأخشاب . وكان خط الفرنسيين أعرض من خطنا ، وكان واضحا أنهم يستطيعون بسهولة أن يحدقوا بجناحينا كليهما ، بسهولة ، من الجانبين . وكان خلف موقعنا منحدر وعر عميق ، يشق معه على المدفعية والفرسان أن يتراجعوا . وأخرج الأمير أندرو مذكرته ، واستند إلى المدفع ، وخطّط خريطة للموقع . وكتب بضع مذكرات عن نقطتين ، وفى نيته أن يذكرهما لباجراتيون . كان رأيه ، أولا ، أن تركز كل المدفعية فى الوسط ، ثانيا ، أن يسحب الفرسان إلى الجانب الآخر من المنحدر . كان الأمير أندرو قريبا دائما إلى القائد العام ، وكان يتتبع حركات التجمعات ، والأوامر العامة ، ويدرس باستمرار الأوصاف التاريخية للمعارك ، ومن ثمّ فقد صور لنفسه ، عن غير اختيار ، مجرى الأحداث فى المعركة القادمة ، بخطوطها العريضة . ولم يتصور إلا الامكانيات العامة . قال لنفسه : « إذا

هاجم العدو الجناح الأيمن فان رُماة كيف ، وقناصة بودولسك يجب أن يبقيا على مراكزهم، حتى تأتى النجدة من الوسط . وفى هذه الحالة يستطيع فرسان الدراجون بنجاح أن يقوموا بهجوم مضاد جانبى . فاذا هاجموا وسطنا ، فان لدينا مدفعية الوسط على هذه الأرض المرتفعة . فسنسحب الجناح الأيسر تحت غطاء هذه المدفعية ، ونتراجع إلى المنحدر على مراحل ..

بهذا كان يفكر ... وطوال الوقت الذى كان يقف فيه إلى جانب المدفع ، كان يسمع أصوات الضباط بوضوح . ولكنه لم يفهم — كما يحدث غالبا — كلمة واحدة مما كانوا يقولون إلا أن صوتا آتيا من الكوخ بدهه فجأة ، وكانت لهجته من الصدق بحيث لم يملك إلا أن يصيخ السمع .

قال صوت لطيف بدا مألوفا عند الأمير أندرو :

— لا يا صديقى . إن ما أقول هو أنه إذا كان ممكنا أن نعرف ما بعد الموت ، فلن يخشاه أحد منا . هذه هى المسألة ، يا صديقى .

فقاطعه صوت آخر ، أصغر سناً :

— سواء خشيته أو لم تفعل ، فلن تفلت منه على أى حال .

فقال صوت به رجولة ، يقاطعهما كليهما :

— ومع ذلك فالمرء يخاف ..! بالطبع أنتم رجال المدفعية حكماء جدا، لأنكم تستطيعون أن تأخذوا معكم كل شىء ، الفودكا والطعام .

وضحك صاحب الصوت ذى الرجولة ، وواضح أنه من ضباط المشاة .

واستطرد المتكلم الأول ، صاحب الصوت المألوف :

— نعم يخاف المرء . يخاف المرء من المجهول ، هذه هى المسألة . ومهما قلنا عن ذهاب الروح إلى السماء .. فنحن نعرف أن لاسماء هناك ، بل الجو فقط .

فقاطع صاحب الصوت ذى الرجولة مرة ثانية ضابط المدفعية ، قائلا :

ـــ حسناً . قدم لنا بعضا من ڤودكا الحشيش التى عندك يا توشين .

نخطر للأمير أندرو :

ــ بالطبع هذا الكابتن الذى كان يقف فى الخيمة دون حذاء .

وعرف ، بسرور ، الصوت اللطيف الفلسف .

قال توشين :

ـــ بعض ڤودكا الحشيش ! بالتأكيد ..! ومع ذلك ، فإن تصوّر حياة أخرى ..

ولم يكمل . فمنذئذ دوّى فى الجو صفير ، واقترب ، ودنا ، وأسرع ، وعلا ، وعلا ، وأسرع ، وجاءت قنبلة مدفع ، كما لو لم تكمل قول ماهو ضرورى أن تقول ، فدقّت الأرض بالقرب من الكوخ. بقوة فوق إنسانية ، وطوّحت بكتلة من التراب فى الهواء . وبدا أن الأرض تئن تحت الصدمة المروّعة .

وللفور اندفع توشين ، وفى ركن فمه غليون قصير ، وقد مال وجهه الذكى الودود إلى الشحوب نوعا ما ، اندفع خارجاً من الكوخ يتبعه صاحب الصوت ذى الرجولة ، ضابطٌ جسور من المشاة ، مضى متعجلاً إلى سريته ، يزرر جاكتته وهو يجرى .

الفصل السابع عشر

امتطى الأمير حصانه ثانيــة . وتمهل قليلاً عند البطارية ، ينظر إلى الدخان المتصاعد من المدفع الذى أطلق القنبلة . وجالت عيناه بسرعة فى الفراغ الفسيح ، ولكنه لم ير إلا أن الحشود التى كانت حتى ذاك الحين ساكنة بلا حراك ، أخذت الآن تهتز . وأن هناك فعلاً بطارية إلى يسارها. ولم يكن الدخان فوقها قد تشتت بعد . وكان هناك فرنسيان راكبان ،

لعلهما ياوران ، يعدوان صاعدين التل . وهناك صف صغير من الاعداء ، صغير ، ولكنه واضح بجلاء ، يتحرك منحدراً على التل ، فعساه يذهب ليعزز الخط الأمامى . ولم يكن دخان الطلقة الأولى قد تشتت بعد عند ما ظهرت هبّة أخرى من الدخان أعقبها دوى الطلقة . فقد بدأت المعركة ..!

أدار الأمير أندرو حصانه ، وعدا راجعاً إلى جرونت ، يبحث عن الأمير باجراتيون . وكانت المدفعية من وراءه تعلو وتزداد . وكان واضحا أن مدفعيتنا أخذت ترد . وجاء دوى البنادق من قاع المنحدر ، حيث كانت قد دارت الأحاديث .

كان ليمارو قد وصل للتو عدواً . بخطاب بونابرت « الصارم » . وأحس ميرا بأنه قد امتهن ، وكان متلهفا أن يعوض خطأه . فحرك قواته على الفور لتهاجم قلب القوات الروسية ، ويحدق بجناحيها كليهما فى الوقت نفسه ، آملاً أن يسحق الفرقة الحقيرة التى كانت تقف أمامه ، قبل المساء وقبل وصول الامبراطور .

وفكر الأمير أندرو وهو يحس الدم يندفع إلى قلبه :

— بدأت المعركة . ها هى ذى ..! ولكن كيف ، وأين ستعرض « طولون » لى ؟

وفى أثناء مروره بين السرايا التى كانت تأكل العصيدة وتشرب الفودكا منذ ربع ساعة ، رأى فى كل مكان حركة الجنود السريعة نفسها ، يكوّنون صفوفا ، ويعدّون بنادقهم ، وعرف ، فى وجوههم جميعا ، تلك اللهفة بعينها التى كانت تملأ قلبه . كان يبدو أن وجه كل جندى وكل ضابط يقول: « قد بدأت . ! هاهى ذى مخيفة ، ولكن ممتعة ..! »

وقبل أن يصل إلى السدود التى كانت تقام ، رأى ، فى نور المساء الخريفى المعتم ، رجالاً راكبين يقبلون نحوه ، وكان فى مقدمتهم الأمير باجراتيون ، يرتدى عباءة قوزاقية وقبعة من جلد الغنم ، ويركب حصانا

أبيض. فوقف الأمير أندرو ، في انتظار مقدمه . وكبح الأمير باجراتيون حصانه وعند ما عرف الأمير أندرو أومأ إليه برأسه . كان مايزال ينظر أمامه . بينما كان الأمير أندرو يخبره بما رأى .

وكان الاحساس بأنها « قد بدأت المعركة ..! ها هي ذي .!» يُرى حتى على وجه الأمير باجراتيون الصلب الأسمر ، بعينيه النائمتين المعتمتين نصف المغمضتين . وحدق الأمير أندرو ، بتطلع متلهف قلق ، إلى ذلك الوجه السلبي ، وتمنى لوكان بوسعه أن يعرف فيم يفكر ويشعر هذا الرجل في تلك اللحظة ، لو أنه كان يفكر أو يشعر بشيء . وساءل الأمير أندرو نفسه وهو ينظر إليه : « أهناك ثم شيء إطلاقا فيما وراء ذلك الوجه الجامد ؟» . أحنى الامير باجراتيون رأسه دلالة على موافقته على ماأخبره به الأمير أندرو . وقال : «حسنا جدا !» ، في نبرة تبدو كما لو كانت تتضمن أن كل ما يحدث ، وكل ما يقال له ، كان بالضبط كما ينتظر ويتنبأ . وكان الأمير أندرو يتكلم بسرعة ، وقد انبهرت أنفاسه من ركوبه السريع . وتفوه الأمير باجراتيون بكلماته ، بلهجته الشرقية ، وكان يتكلم ببطء وتؤدة بالغة ، كما ليؤكد أن ليس ثم حاجة للعجلة . إلا أنه أطلق حصانه يعدو خبباً في اتجاه بطارية توشين . وتبعه الأمير أندرو ، مع مرافقيه . وكان يركب خلف الأمير باجراتيون ، ضابط من مرافقيه ، ياور الأمير الشخصي ، وزيركوف ، وضابط مراسلة ، وضابط الأركان المكلف بالخدمة ، يركب حصانا جميلا قصير الذيل ، وأحد المدنيين — هو محاسبٌ التمس الإذن بأن يشهد المعركة ، من باب الفضول — وكان المحاسب ، وهو رجلٌ بدين ملء الوجه ، ينظر حواليه بابتسامة ساذجة ، تنم عن الرضا ، ويبدو بمظهر غريب بين الفرسان ، والقوزاق ، والياورين ، في جاكتته المصنوعة من وبر الجمل ، وهو يرتفع ويهبط على حصانه السرج بسرج ضابط من سلاح النقل .

قال زيركوف لبولكونسكى ، مشيراً إلى المحاسب :

ـــ يريد أن يرى معركة ولكنه يحس ألما فى قاع المعدة ، من الآن .

فقال المحاسب بابتسامة مشرقة وإن كانت ما كرة نوعا ما ، كما لو كان قد تملقه أن يكون موضوع نكتة زيركوف ، ويحاول أن يبدو ، عن عمد ، أغبي مما هو فى الواقع :

ـــ أوه ، دعك من هذا ..!

قال ضابط الاركان :

ـــ من الغريب جداً ، يا أمير يا سيدى ...

كان يتذكر أن هناك بالفرنسية أسلوباً خاصاً لمخاطبة الأمراء ، لـكنه لم يستطع أن يسترجعه تماما .

فى هذه الأثناء كانوا يقتربون جميعا من بطارية توشين ، واصطدمت رصاصة بالأرض أمامهم .

سأل المحاسب بابتسامة ساذجة :

ـــ ما ذاك الذى سقط ؟

فأجاب زيركوف :

ـــ فطيرة فرنسية .

فسأل المحاسب :

ـــ فهم يضربون بهذا إذن ؟ ما أفظع ذلك ..!

وكان يلوح أنه ينتفخ بالرضا . ولم يكد يكمل حديثه حينما سمعوا ثانية صفيراً عنيفا بشكل غيرمنتظر ، انتهى فجأة بارتطامه فى شيء ناعم لـيِّن... فـ ـفـ ـ فلوب ..! وسقط أحد القوزاق ، وكان يركب إلى يمينهم بقليل ، خلف المحاسب ، واصطدم بالأرض مع حصانه . انحنى زيركوف وضابط الأركان على سرجيهما ، وأدارا حصانيهما بعيداً . ووقف المحاسب فى مواجهة القوزاق ، وأخذ يتفحصه بفضول وانتباه . كان القوزاقى قد

مات ، ولـكن حصانه ما يزال يناضل .

زم الأمير باجراتيون عينيه ، ونظر حواليـه ، فلما رأى سبب الاضطراب ، أشاح بغير مبالاة ، كما لو كان يقول : « أيجدر أن نلق بالاً للتوافه ؟ » . وكبح عنان حصانه بسهولة الفارس البارع. وانحنى انحناءة هينة ، ليخلص سيفه الذى كان قد اشتبك بعباءته . كان سيفا من طراز قديم لم يعد شائع الاستعمال . وتذكر الأمير أندرو قصة سوفوروف عند ما أعطى باجراتيون سيفه فى إيطاليا ، وكانت الذكرى سارة بشكل خاص فى تلك اللحظة . كانوا قد بلغوا البطارية، التى كان الأمير أندرو عندها ، لما كان يتفحص ميدان القتال .

سأل الأمير باجراتيون جندى مدفعية يقف إلى عربة الذخيرة :

— سرية من ؟

كان يسأل «سرّية منْ ؟ » ، ولـكنه كان يعنى فى الحقيقة: « أأنتم خائفون هنا ؟ » ، وفهم جندى المدفعية .

فصاح المدفعى الأحمر الشعر، الذى يغطى النمش وجهه ، بصوت مرح ، وهو يقف انتباها :

— سرّية كابتن توشين ، ياصاحب السعادة ..!

فتمتم باجراتيون ، كما لو كان يتأمل شيئا :

— نعم . نعم .

وركب متجاوزاً حوامل المدافع ، إلى أقصى مدفع .

وبينما هو يدنو منه ، انطلقت منه طلقة رنانة مدوّية أصمّته وأصمت مرافقيه ، وكان باستطاعتهم ، فى الدخان الذى أحاط بالمدفع فجأة ، أن يروا المدفعيين الذين أمسكوا بالمدفع المندفع ليدحرجوه بسرعة إلى موقعه السابق . ووثب إلى العجلة مدفعى هائل الجسم ، عريض المنكبين ، رقم واحد ، ممسكا بخرقة ، وساقاه متباعدتان . أما رقم اثنين فقد وضع عبوة

فى فوهة المدفع ، بيد مرتعشة وتحرك الكابتن توشين إلى الأمام ، قصيراً مدور الكتفين ، وهو يتعثر بمؤخرة عربة المدفع ، ولم يلحظ وجود الجنرال ، وأخذ يتطلع ، مظللا عينيه بيده الصغيرة .

وصاح بصوت ضعيف عالج أن يكسبه نبرة بسورة لا تتسق مع بنيته الضعيفة :

— ارفعه خطتين أيضا فيصبح مضبوطا تماما .

وزقزق صائحاً :

— رقم اثنين ..! أطلق ميدفيديف ..!

ناداه باجراتيون ، فرفع توشين ثلاثة أصابع إلى قبعته بحركة خجولة مرتبكة لا تشبه فى شىء تحية عسكرية ، بل تشبه بركة قسيس ، واقترب من الجنرال . وعلى أن مدافع توشين كان يقصد بها أن تضرب الوادى ، فقد كان يطلق قنابل حارقة على قرية شون جرابتيرن التى تبدو أمامه مباشرة ، وتتقدم أمامها حشود كبيرة من الفرنسيين .

لم يكن أحد قد أصدر أوامر إلى توشين أين وماذا يطلق من قنابل ، لكنه بعد ان استشار شاويش سريته زخارشينكو، الذى كان توشين يكن له احتراما كبيراً ، قرر أن من الخير أن يشعل النار فى القرية .

وقال باجراتيون ، رداً على تقرير الضابط :

— حسناً جداً ..!

وأخذ يتفحص ، فى تدبر ، ميدان القتال الممتد كله أمامه . كان الفرنسيون قد تقدموا أقرب ما يكونون إلى عيننا . وتحت المرتفع الذى ترابط عليه فرقة كييف ، فى الفج الذى ينساب فيه النهير ، كانت تسمع قرقعة طلقات البنادق وتردد أصدائها الذى يهز الروح ، وإلى اليمين بعيداً ، خلف فرسان الدراجون أشار الضابط المرافق إلى باجراتيون ، مومئاً إلى صف فرنسى يحدق بجناحنا . وكان الأفق إلى اليسار، تحده الغابة المجاورة .

فأمر الأمير باجراتيون بارسال كتيبتين من الوسط لتعزيز الجناح الأيمن . وغامر الضابط المرافق بأن يقول للأمير أنه إذا ذهبت هاتان الكتيبتان ، بقيت المدافع دون أن تسندها قوات ما . فالتفت الأمير باجراتيون إلى الضابط ، ونظر إليه صامتاً ، بعينيه المعتمتين . ولاح للأمير أندرو أن ملاحظة الضابط كانت صحيحة ، وأنه في الحق لا يمكن أن تكون لها إجابة : ولكن ملازما جاء يعدو في تلك اللحظة ، برسالة من قائد الفرقة في السفح ، وبأخبار عن حشود ضخمة من الفرنسيين تنحدر إليهم ، وأن فرقته قد اختل نظامها ، وأخذت تتقهقر ناكصة على رماة كييف . فأحنى الأمير باجراتيون رأسه، دلالة على الموافقة والتحبيذ . وركب، بسرعة المشى، إلى اليمين ، وأرسل ملازما إلى فرسان الدراجون ومعه أمر بالهجوم على الفرنسيين . ولكن هذا الملازم عاد بعد نصف ساعة ، بأن قائد الدارجون قد تقهقر بالفعل إلى ماوراء الغور الذى كان خلفه ، إذ فُتحت عليه نيران ثقيلة ، وكان يفقد الجنود في غير ما طائل . ومن ثم فقد أسرع بوضع بعض القناصة الماهرين في الغابة .

قال باجراتيون :

ـــ حسناً جداً ..!

وبينما كان يبارح البطارية ، سمع إطلاق النار إلى اليسار أيضا ، وكان الجناح الأيسر أبعد من أن يتاح له الوقت للذهاب إليه بنفسه ، فأرسل الأمير باجراتيون زيركوف ليقول للجنرال القائد ـــ الجنرال الذى كان قد استعرض فرقته أمام كوتوزوف عند برونو ـــ أن عليه التراجع بأسرع مايستطيع ، فما وراء الغور الذى يقع خلفه ، إذ لن يستطيع الجناح الأيمن في الغالب أن يحتمل هجوم العدو طويلا . ونسى كل شىء عن توشين ، والسرية التى كانت تسند بطاريته . وأصغى الأمير أندرو بانتباه إلى أحاديث باجراتيون مع الضباط القواد ، والأوامر التى كان يلقيها عليهم ،

فوجد لدهشته ، أن ليس هنـاك أوامر تصـدر بالعمـل ، بل أن الأمير باجراتيون ، كان يحاول إظهار أن كل شيء تم بالضرورة أو بالصدفة ، أو بإرادة القواد التـابعين له ، إنمـا كان يتم ، إن لم يـكن بأمره المباشر فبالاتفاق على الأقل مع نواياه . ولاحظ الأمير أندرو مع ذلك أنه على الرغم من أن ماحدث كان يرجع إلى الصدفة ، ومستقلا عن إرادة القائد ، فإن وجود باجراتيون ، بفضل ما كان يبديه من كياسة ولباقة ، كان شيئا قيما جداً . كان الضباط الذين يقتربون منه بوجوه مضطربة قلقة ، يهدأون ، وبحييه الضباط والجنود في مرح ، وتزداد بهجتهم في وجوده ، وواضح أنهم يتلهفون لابداء شجاعتهم أمامه .

الفصل الثامن عشر

لما وصل الأمير باجراتيون إلى أعلى نقطة في جناحنا الأيمن ، بدأ يركب منحدراً على التل حيث كانت تسمع قرقعات البنادق ، وإن كان ليس في الوسع رؤية شيء ، من الدخان . وكلما اقتربوا من القاع ، قلّ ما كان يسعهم أن يروا وزاد إحساسهم بقرب ميدان القتال الفعلي . وبدأوا يلتقون بجنود جرحى . وكان أحدهم ، ينزف الدم من رأسه ، ومن غير قبعة ، يجره جنديان يسندانه من تحت الذراعين . وكان في حلقه صوت غرغرة ، وهو يبصق دماً . كان واضحا أن رصاصة قد أصابته في الفم أو الحلق . وكان آخر يمشي بقوة ، وحده ، ولـكن من غير بندقية ، يئن بصوت مرتفع ، ويهز ذراعه التي كانت قد أصيبت للتو ، بينما يتدفق منها الدم ، على معطفه ، كما لو كان يتدفق من زجاجة . كان قد أصيب في تلك اللحظة وكان وجهه ينمّ عن الخوف ، لا عن الألم . وعبروا طريقا ، ونزلوا منحدرا وعراً ، ورأوا عدة جنود راقدين على الأرض . كما التقوا بحشد من الجنود بعضهم غير جريح . كان الجنود يرقون التل ، يتنفسون بمشقة .

وكانوا ، على الرغم من وجود الچنرال ، يتكلمون بصوت مرتفع ويشوّرون وكان يرى أمامهم ، بالفعل ، صفوف من العباءات الرمادية ، من خلال الدخان ، فلما وقع بصر أحد الضباط على باجراتيون اندفع صائحا بحشد الجنود التراجعين ، يأمرهم بالرجوع ركب باجراتيون إلى الصفوف التى كان الرصاص يقرقع فيها تارة هنا ، وتارة هناك . فيغرق الأصوات وصيحات الأوامر . وكان الجو كله يعبق بالدخان . وكان البعض يدكّون قضبان البنادق فى المواسير والآخرون يضعون البارود على اسطوانات البارود ، أو يأخذون عبوات البارود من الجراب ، بينما البعض الآخر يطلق النار . وإن لم يكن من الممكن أن يرى علام يطلقون النار ، من الدخان الذى لم تكن هناك رياح تطرده وكان يتردد طنين الرصاص وصفيره السارّ البهيج . وفكر الأمير أندرو وهو يقترب من حشد الجنود : « ما هذا إذن ؟ لا يمكن أن يكون هجوما فهم لا يتحركون ، ولا يمكن أن يكون طابوراً ، فهم ليسوا مصفوفين » .

وركب إلى باجراتيون قائد الفرقة ، رجل عجوز نحيل ، يبدو عليه الضعف ، له ابتسامة لطيفة ، وجفناه المسبلان على أكثر من نصف عينيه العجوزين ، يكسبانه تعبيراً وديعاً ، ورحب بالقائد كما يرحب المضيف بضيف مبجّل . وبلّغ أن فرقته هوجمت من الفرسان الفرنسيين ، وأنه ، على أن الهجوم قد صُد ، فقد أكثر من نصف جنوده . قال أن الهجوم قد صُدّ ، مستخدماً هذا التعبير العسكرى ، ليصف ما حدث لفرقته ، ولكنه فى الحقيقة لم يكن يعرف ، هو نفسه ، ماذا حدث ، فى أثناء نصف الساعة هذه ، للقوات التى عُهد بها إليه ، ولم يكن بوسعه أن يقول ، عن يقين ، ما إذا كان الهجوم قد صُدّ ، أو كانت فرقته قد تشتت شملها . كل ما كان يعرف أنه فى بداية المعركة أخذت الطلقات والقنابل تتطاير فوق فرقته جميعاً ، وتصيب الجنود ، وأن أحداً صاح ، بعد ذلك : « الفرسان .! » وأخذ رجالنا

يطلقون النار ، وكانوا ما زالوا يطلقون النار ، لا على الفرسان الذين اختفوا ، بل على المشاة الفرنسيين الذين جاءوا إلى القاع ، وراحوا يطلقون النار على جنودنا . فأحنى الأمير باجراتيون رأسه علامة على أن ذلك بالضبط ما كان يرغب فيه أو ينتظره . والتفت إلى ياوره فأمره بأن يحضر أورطتى فرقة القناصة السادسة اللتين مروا بهما للتوّ ، إلى تحت . ودهش الأمير أندرو لما رآه من تغيير على مظهر وجه الأمير باجراتيون فى تلك اللحظة . فقد كان يعبر عن العزم المركز المقود السعيد الذى تراه على وجه رجل يجرى لآخر مرحلة ، فى يوم حار ، قبل أن يقذف بنفسه إلى المياه . ولم يعد هناك التعبيرُ النائم المعتم ولا التظاهر بالتفكير العميق . كانت عيناه المدوّرتان الثابتتان تنظران أمامه ، كعيني الصقر ، بشغف ولهفة وشيء من الزراية والتعالى ، لا تستقران على شيء ، وإن بقيت حركاته مع ذلك متئدة محسوبة .

والتفت قائد الفرقة إلى الأمير باجراتيون ، يضرع إليه أن يعود ، فقد كان بقاءه حيث كان ، أمراً شديد الخطر . وظل يقول وهو يرمق ، فى طلب التأييد ، ضابطا مرافقا أشاح عنه :

— من فضلك ياصاحب السعادة .. بحق الإله ..! هاك ، أترى ..!

وهو يلفت الانتباه إلى الرصاص إذ يصفر ، ويغنى ، ويئن دون انقطاع حولهم . كان يتكلم بلهجة التضرع والعتب التى يتكلم بها نجار إلى سيد قد التقط فأساً : « نحن معتادون على ذلك ، لكن أنت ، يا سيدى ، ستجرح يديك » . كان يتكلم كما لو كان هذا الرصاص لا يمكن أن يقتله ، وكانت عيناه نصف المغمضتين تزيدان لهجته إقناعاً . وانضم ضابط الأركان إلى الكولونيل فى التماسه . لكن باجراتيون لم يجب ، بل أصدر أمراً بإيقاف النار وإعادة تشكيل الصفوف ، حتى يفسح المكان للأورطتين القادمتين . وبينما كان يتكلم أخذت ستارة الدخان التى كانت تخفى القاع ،

تتحرك من اليمين إلى اليسار وقد دفعتها ريحٌ هبَّت ، كما لو كانت تجذبها يدٌ خفية ، وانفتح أمامهم التل القابل ، وعليه الفرنسيون يتحركون . وثبتت العيون جميعاً من غير اختيار ، بهذا الطابور الفرنسى الذى يتقدم ضدهم ، ويتعرّج منحدراً على الأرض غير المستوية . وكان المرء يستطيع من الآن أن يرى قبعات الجنود المشعثة ، تفْرق الضباط عن الجنود ، ويرى اللواء يصطفق فى الهواء بساريته

قال أحد مرافقى باجراتيون :

— إنهم يسيرون بشكل رائع .

كان رأس الطابور قد نزل بالفعل فى القاع . وسيحدث الصدام على هذا الجانب منه ...

شكّلت بقية فرقتنا التى كانت مشتركةً فى المعركة صفوفها بسرعة ، وتحركت إلى اليمين ، وجاء من خلفها أورطتان من فرقة القناصة السادسة ، فى نظام رائع ، فتفرق المتخلفون والمتعثْرون وكان بالوسع سماع دقّ خطى حشد الرجال السائرين بخطوة منتظمة ، دقاً ثقيلا ، قبل أن يصلوا إلى باجراتيون . وإلى جناحهم الأيسر ، كان يسير قائد سرية ، أدنى ما يكون إلى باجراتيون ، رجلٌ رائع مدور الوجه ، كان قد اندفع خارجاً من الكوخ المصنوع من السنط . وكان فى تلك اللحظة كما هو جلىّ ، لا يفكر إلا فى مظهره ، إذ يبدو شخصاً جسوراً مدهشاً ، إذ يمر بالقائد .

كان يخطو ، بخفة ، بساقيه المفتولتى العضل ، فى رضا رجل يمشى فى الاستعراض ، عن نفسه ، كما لو كان ينساب ، يشد قامته إلى أقصى ارتفاعها ، دون أدنى جهد ، ويُسر حركته يتناقض مع وقع خطى الجنود الثقيل ، إذ يسيرون فى حذاء خطوته . وكان يحمل ، قريباً من ساقه ، سيفاً مسلولا ضيقاً ، صغيراً ، مقوساً ، لا يشبه سلاحاً حقيقيا ، وكان ينظر تارة إلى الضباط المظام ، وتارة إلى جنوده ، دون أن تختل خطوته ، وجسده

القوى بأكمله يستدير بمرونة كان يبدو أن كل قوى روحه إنما تركزت فى أن يمر بالقائد بأفضل طريقة ممكنة ، وكان سعيداً ، إذ يحس أنه يفعل ذلك بشكل حسن ... كان يلوح أنه يكرر لنفسه ، عند كل خطوة من اثنتين : « شمال . . شمال . . شمال . . » ، وكان الجنود ، بوجوه صارمة منوّعة ، يسيرون بخطى منتظمة على هذا الوقع ، حائط من الجنود مثقلين بالجرابنديات والبنادق ، وكلٌّ من هذه المئات من الجنود يبدو أنه يردّد لنفسه عند كل خطوة من اثنتين : « شمال . . شمال . . شمال . . » ودار ماجور بدين حول شجيرة ، وهو ينفخ وتضطرب خطوته ، وتخلف جندى ، فبدا على وجهه القلق لهذا القصور ، وجرى مهرولا ، يلهث ، ليلحق بسريته . وشقّت قنبلة مدفع الهواء ، وطارت فوق رؤوس باجراتيون ومرافقيه ، وسقطت فى وسط الطابور على وقع : « شمال . . شمال . . » وجاء صوت قائد السرية فى نبرات ناشطة متوفزة : «اقفل الصف ..!» ، ودار الجنود فى نصف دائرة حول شىء وقع حيث كانت قد سقطت القنبلة ، وجرى جندى قديم فى الجناح ، صف ضابط ، كان قد وقف بجوار رجل ميّت ، جرى ليلحق بصفه وقفز حتى سار بخطى منتظمة مضبوطة ، ونظر إلى الخلف بغضب ، وفى الصمت المنذر ، ودقّ الخطى المنتظم للأقدام التى تخبط الأرض باتحاد ، كان يخيل للمرء أنه يسمع : شمال .. شمال .. شمال ..

قال الأمير باجراتيون :

— أحسنتم يا أولاد . !

فجاءت صيحة مضطربة من بين الصفوف :

— يسعدنا أن نبذل أحسن جهدنا يا صاحب السعا ـ سعادة ..!

وأدار جندى مقبض كثيب ، كان يسير إلى اليسار ، عينيه إلى باجراتيون ، وهو يهتف بتعبير يلوح أنه يقول : « نحن نعرف ذلك

بأنفسنا . . ! » ، وهتف آخر بفمه مفتوحاً على سعته ، ومضى دون أن يلتفت ، كما لو كان يخشى أن يتراخى لو فعل .

وصدر الأمر بالوقوف ، وإنزال الجرابنديات .

وركب باجراتيون حول الصفوف التي كانت سارت أمامه وترجّل . وأعطى العنان قوزاقياً ، وخلع جاكتته المصنوعة من الجوخ ، وسلّمها ، ومدّ ساقيه ، وسوّى وضع قبعته على رأسه . وظهر الطابور الفرنسي ، وضباطه في المقدمة ، من تحت التل .

قال باجراتيون بصوت رنان مستقرّ العزم ، متلفتا لحظة إلى الخط الأمامي :

— إلى الأمام ، والله معكم ..!

وهز ذراعيه هزاً طفيفا ، وتقدم إلى الامام ، في غير يسر ، فوق الأرض الخشنة ، بمشية الفرسان المضطربة . وأحس الأمير أندرو أن قوة خفية تقوده إلى الأمام ، ومارس سعادةً عظيمة .

كان الفرنسيون قريبين منا الآن . وكان الأمير أندرو ، وهو يسير بجانب باجراتيون ، يستطيع أن يتبين بجلاء الأعلام الصغيرة والشرائط الحمر على أكتافهم ، بل وجوههم — رأى بوضوح ضابطا فرنسيا عجوزا كان يتسلق التل بمشقة ، ساقاه في رباطي الساق ، وقدماه منفرجان — لم يصدر الأمير باجراتيون أوامر أخرى ، وواصل سيره صامتا أمام الصفوف . وفجأة دوّت طلقةٌ إثر الأخرى من بين الفرنسيين ، وظهر الدخان على طول صفوفهم غير المستوية ، ودوت طلقات البنادق . وسقط الكثير من رجالنا ، ومنهم الضابط المدور الوجه الذي كان يسير بكل ذلك المرح والاعتداد . على أنه لحظة أن سمعت أول طلقة نظر باجراتيون حواليه وهتف : هورّ اه .!

فدوت صيحته متطاولة من صفوفنا : هورر اه . راه . راه . . !

واندفعوا يتجاوزون باجراتيون، يتسابقون، فى حشد غير منتظم وإن كان مليئاً بالبهجة واللهفة منحدرين على التل، على عدوهم المشتت الصفوف[1]

الفصل التاسع عشر

كان هجوم فرقة القناصة السادسة كفيلا بوقاية تقهقر جناحنا الأيمن. وفى القلب قامت بطارية توشين المنسية، التى استطاعت أن تشعل النار فى قرية شون جرابيرن، بتعويق تقدم الفرنسيين. كان الفرنسيون يطفئون النيران التى كانت الرياح تنشرها، ومن ثم أتاحوا لنا الوقت للتقهقر. وكان تقهقر القلب إلى الجانب الآخر من الغور، فى المؤخرة، متعجلا، ولاغطاً، لكن السرايا المختلفة لم تختلط بعضها بالبعض. أما يسارنا — الذى كان يتكون من مشاة آزوف وبودولسك، وفرسان بافلوجراد — فقد هوجم فى الوقت نفسه، وأحاطت بجانبه، قوات فرنسية متفوقة تحت قيادة لان، فألقت بالاضطراب فيه. كان باجراتيون قد أرسل زيركوف إلى الجنرال القائد لذلك الجناح الأيسر، بأوامر التقهقر للتو.

وأدار زيركوف حصانه، دون أن رفع يده عن قبعته، وانطلق يعدو ولكنه ما كاد يترك باجراتيون حتى خانته شجاعته، واستأثر به الفزع، ولم يستطع أن يذهب حيث كان الخطر.

فلما بلغ الجناح الأيسر، أخذ يبحث عن الجنرال وأركان حربه، حيث لا يمكن أن يكونوا، بدلا من أن يذهب إلى الجبهة، حيث كان

---

(١) كان ذلك هو الهجوم الذى قال عنه تيير: سلك الروس سلوكا شجاعا، ورؤى ما يحدث نادراً فى الحرب، فرقتان من المشاة تسيران بحزم، الواحدة ضد الأخرى، دون أن تتراجع إحداهما قبل الالتقاء.

وقال نابليون فى سانت هيلانة: «أبدت بعض الأورط الروسية أن ليس عندها أى خوف على الاطلاق».

إطلاق النار . ومن ثم فلم يسلم الأمر .

كانت قيادة الجناح الأيسر بالأقدمية لقائد الفرقة التي استعرضها كوتوزوف ، والتي كان يخدم بها دولوخوف ، برتبة نفر . ولكن قيادة أقصى الجناح الأيسر ، كان قد عهد بها إلى قائد فرقة بافلوجراد التي كان روستوف بها ، وقام سوء تفاهم . كان القائدان مغيظين أحدهما من الآخر وبعد أن بدأ الاشتباك بزمن طويل في الجناح الأيمن ، وكان الفرنسيون يتقدمون بالفعل ، كانا مايزالان يتناقشان ، بغرض واحد : أن يهين أحدهما الآخر . ولكن الفرق ، سواءً الفرسان منها أو المشاة ، لم تكن مستعدة للمعركة الوشيكة ، بأي حال لم يكونوا ، من الجنود إلى الجنرالات ، ينتظرون معركة ، وكانوا عاكفين على مشاغلهم السلمية الهادئة ، الفرسان يطعمون جيادهم ، والمشاة يجمعون الخشب .

قال الكولونيل الألماني قائد الفرسان ، مضرج الوجه ، يخاطب ياوراً ركب إليه :

— هو في الرتبة مني أعلى . فليفعل مايريد ، لكني لايمكن أن أضحي بفرساني ... عسكري النفير ، أنفخ تراجُع ..!

إلا أن السرعة أصبحت ضرورة ملحة واجبة . فقد اختلطت طلقات البنادق والمدافع معاً ، وأخذت ترعد في اليمين وفي القلب ، بينما رؤيت قبعات قناصة لانّ بالفعل ، يعبرون سد الطاحون ، ويشكلون صفوفهم في نطاق مدى رصاص البنادق مرتين . ومضى الجنرال قائد المشاة إلى حصانه بخطوات منفوخة مرتجة ، فلما ركب شد قامة مستقيمة جداً ، طويلة ، وركب إلى قائد بافلوجراد . والتقى القائدان بانحناءات مؤدبة ، وسوء الطوية في قلبهما .

قال الجنرال :

— مرة أخرى يا كولونيل ،لا أستطيع أن أترك نصف رجالي في الغابة .

إننى أتوسل إليك ...

وكرر :

— إننى أتوسل إليك أن تحتل الموقع وتستعد للهجوم .

فأجاب الكولونيل المحنق ، فجأة :

— وأنا أتوسل إليك نفسك ألا تتدخل فيما لا يخصك . ! لو كنت أنت فى الفرسان ...

— لست فى الفرسان يا كولونيل ، ولكنى جنرال روسى ، فإذا كنت غير مدرك لهذه الحقيقة ...

فصاح الكولونيل فجأة ، وهو يمس حصانه وقد استحال وجهه محتقناً بالدم :

— مدرك لها تماماً ياصاحب السعادة ، هل تتفضل أن تأتى للجبهة وترى بنفسك أن هذا الموقع لا يصلح ؟ لاأريد أن أقضى على رجالى من أجلك ..!

— أنت تنسى نفسك يا كولونيل . لست أفكر فى نفسى ، ولاأسمح لهذا أن يقال ..!

واعتبر الجنرال أن انفجار الكولونيل تحديا لشجاعته ، فمد صدره ، وركب عابسا بجانبه ، إلى الخط الأمامى ، كما لو كان خلافهما سيسوى هناك بين الرصاص . ووصلا الجبهة ، وانطلقت فوقهما طلقات عديدة ، ووقفا فى صمت . ولم يكن ثم جديد يُرى من الخط الأمامى ، فقد كان واضحاً ، حيث كانا من قبل ، أنه يستحيل على الفرسان أن تشتبك فى معركة بين الشجيرات وعلى الأرض الوعرة ، كما أن الفرنسيين كانوا يحيطون بجناحنا الأيسر . ونظر الجنرال والكولونيل بصرامة ، نظرة ذات مغزى ، إلى أحدهما الآخر ، كديكين مصارعين يستعدان للقتال ، كل منهما يحاول عبثاً أن يقع على أمارة من الجبن عند الآخر . واجتاز كلاهما الامتحان

بنجاح . ولما لم يكن هناك مايقال، ولم يشأ أيهما أن يتاح أساس للزعم بأنه كان أول من ترك خط النار من الاثنين ، فقد كانا ليبقيا هناك زمناً طويلا يمتحنان شجاعة أحدهما الآخر، لولا أنهما عندئذ بالضبط سمعا قرقعة طلقات البنادق ، وصيحة مكتومة فى الغابة ، خلفهما تقريباً . كان الفرنسيون قد هاجموا الجنود الذين كانوا يجمعون الخشب فى الغابة . لم يعد ممكناً الآن أن يتراجع الفرسان مع المشاة ، فقد قطع عليهم الفرنسيون خط التراجع إلى اليسار . ومهما كان من سوء الموقع ، فقد كان الهجوم ضروريا ، حتى يشقوا لأنفسهم طريقاً .

ولم يكد يتاح الوقت للفصيلة التى كان روستوف منها أن تركب ، قبل أن أوقفت فى مواجهة العدو ومرة أخرى ، كما حدث عند جسر إنس لم يكن هناك شىء بين الفصيلة والعدو ، ومرة أخرى كان بينهما ذلك الخط الرهيب من الخوف وانعدام اليقين — يشبه الخط الذى يفرق الأحياء عن الموتى . وكانوا جميعاً يحسون ذلك الخط الخفى ، وكانت تهيجهم جميعاً مسألة ما إذا كانوا سيعبرون هذا الخط أو لا يفعلون ، وكيف يعبرونه .

ركب الكولونيل إلى الجبهة ، وأعطى إجابة ما ، بغضب ، عن الأسئلة التى وجهها له الضباط . وكان شأنه شأن رجل يلح ، فى استماتة ، على أن ينفذ ما ارتآه ، فأصدر أمراً . لم يقل أحد شيئاً على وجه التحديد ، ولكن إشاعة الهجوم ذاعت فى الفصيلة . ودوّى الأمر بتشكيل الصفوف ، وأزّت السيوف وهى تسلّ من أغمدتها . ومع ذلك فلم يتحرك أحد . كانت قوات الجناح الأيسر ، مشاةً وفرساناً سواءً ، تحس أن القائد لم يكن يعرف ، هو نفسه ، ماذا يفعل ، وانتقل هذا التردد وانعدام العزم إلى الجنود .

وفكّر روستوف :

— لو أنهم ، فقط ، يسرعون ..!

وهو يحس أن الوقت قد جاء ، فى النهاية ، ليمارس فرحة الهجوم التى طالما سمع عنها من زملائه فى الفرسان .

ودوّى صوت دينيزوف :

— إلى الأمام ، ومعكم الله يا أولاد ..! خبباً ، إلى الأمام .!

وبدأت مؤخرات الخيل تهتز فى الصف الأمامى . وشد « غراب » عنانه ، وبدأ يجرى من تلقاء نفسه .

رأى روستوف الصفوف الأمامية من الفرسان أمامه ، إلى اليمين ، وإلى الأمام من ذلك ، صفاً أسود ، لم يكن بوسعه أن يراه بوضوح ، ولكنه افترض أنه العدو . وكان فى الوسع سماع صيحات ، وإن كانت على شىء من البعد .

وجاءت كلمة الأمر :

— أسرع ..!

وأحس روستوف بجنبى « غراب » تهبط إذ انطلق يعدو .

استبق روستوف حركات حصانه ، وازدادت خفته ونشوته باطراد . كان قد لاحظ شجرة وحيدة أمامه . كانت تلك الشجرة فى وسط الصف الذى كم كان يبدو رهيباً — وهو الآن قد عبر هذا الخط ، ولم يكن ثم شىء رهيب ، ليس هذا فحسب ، بل كل شىء يزداد بهجة وحيوية باطراد .

وفكّر روستوف ، وهو يمسك بمقبض سيفه :

— أوه .. كم سأمزقه تمزيقاً ..!

وجاء رعدٌ من الأصوات :

— هو ر ا ا ه ..!

ففكر روستوف ، وهو يدفع مهمازيه فى « غراب » ويطلقه يعدو بأقصى سرعته ، حتى جاوز الآخرين :

ـــ فليأت واحدٌ فى طريق الآن ، وسأريه ..!

وكان العدو إلى الأمام ، بادياً للعيان بالفعل ، وفجأة ، لاح أن شيئاً كمكنسة يكتسح الفصيلة . شهر روستوف سيفه على أهبة الاستعداد للضرب ، ولكن الجندى نيكيتنكو الذى كان يعدو إلى الأمام ، اندفع بعيداً عنه فى تلك اللحظة ، وأحس روستوف ، كما لو كان فى حلم ، أنه يستمر فى الاندفاع إلى الأمام بنفس السرعة ، وأنه مع ذلك باقٍ فى نفس البقعة . واصطدم به من الخلف بوندارشوك ، أحد معارفه من الفرسان ، ونظر إليه بغضب ، ودار حصان بوندارشوك ، وعدا ماراً به .

سأل روستوف ، وأجاب فى نفس اللحظة :

ـــ كيف أننى لا أتحرك ؟ لقد سقطت ، قُتلت ..!

كان وحده فى وسط حقل . وبدلاً من الخيل المتحركة وظهور الفرسان ، لم يرَ أمامه إلا الأرض الثابتة ، والهشيم حوله . وكان تحت ذراعه دم دافىء .

ـــ لا ، إننى مجروح ، وقد قُتِلَ الحصان .

حاول « غراب » أن ينهض على ساقيه الأماميتين ، لكنه سقط ، وقد وقع على ساق راكبه فسمّرها . كان الدم يجرى من رأسه ، وناضل للنهوض ، لكنه لم يستطع . حاول روستوف أيضا أن ينهض ، لكنه سقط ، وقد اشتبك جراب سيفه بسرجه . أين كان رجالنا ، وأين الفرنسيون ، لم يكن يعرف . لم يكن هناك أحد بالقرب منه .

وبعد أن خلّص ساقه ، نهض . وساءل نفسه :

ـــ أين ، وفى أى جانب كان الخط الذى كان يفصل الجيشين هذا الفصل الحاد ؟

ولم يستطع أن يجيب . وتساءل وهو ينهض :

ـــ أيمكن أن يكون حدث لى شىء ؟

وفى تلك اللحظة أحس أن شيئا زائداً ، يتعلق بذراعه اليسرى المخدّرة. وكان يحس بالمعصم ، كما لو لم يكن معصمه . وفحص يده بعناية ، محاولاً عبثاً أن يجد عليها دماً . وفكّر فى فرح عند ما رأى بعض الناس يجرون إليه :

— آه ، ها هنا ناس قادمون . سوف يساعدوننى ..!

وفى المقدمة جاء رجل يلبس قبعة غريبة ، وعباءة زرقاء أسمر لوّحته الشمس ، وأنفه معقوف . ثم جاء اثنان آخران ، وكثيرون غيره يجرون وراءه . وقال أحدهم شيئاً غريباً ، ليس بالروسية . وكان بين آخر هؤلاء الناس الذين يلبسون قبعات متشابهة ، أحد الفرسان الروس . وكانوا يمسكونه من ذراعيه ، ويُقاد وراءه حصانه .

وفكر روستوف ، وهو لا يكاد يصدق عينيه :

— لا بد أنه واحد منا ، أسير . نعم . أيمكن أنهم سيأخذوننى أيضاً ؟ مَن هؤلاء الرجال ؟ أيمكن أن يكونوا فرنسيين ؟

ونظر إلى الفرنسيين الذين يقتربون ، وعلى أنه ، منذ لحظة واحدة ، كان يعدو لكى يصل إليهم فيمزقهم مِزَعاً ، كان قربهم الآن يبدو مخيفاً ، حتى لم يستطع أن يصدق عينيه .

— مَنْ هم ؟ لماذا يجرون؟ أيمكن أنهم قادمون إلىّ ؟ ولِمَ ؟ ليقتلونى ؟ أنا الذى يحبنى الجميع ؟

وتذكر حب أمه له ، وحب عائلته ، وحب أصدقائه ، وبدا له أن نوايا الأعداء مستحيلة .

— ولكن عساهم يفعلون ذلك !

ووقف أكثر من عشر ثوانٍ ، لا يتحرك من النقطة التى كان فيها ، ولا يدرك الموقف . كان الفرنسى الذى جاء فى المقدمة ، صاحب الأنف المعقوف ، قد اقترب بالفعل حتى كان بالوسع رؤية التعبير المرتسم على وجهه .

والوجه الغريب المنفعل لهذا الرجل ، وحربته المسددة إلى أسفل ، وهو يحبس أنفاسه ، ويجرى بهذه الخفة ، كل ذلك أخاف روستوف . وأمسك مسدسه ، وبدلا من أن يطلقه قذف الفرنسى به ، وجرى بكل قوته ناحية الشجيرات . لم يكن يجرى الآن بإحساس الشك والصراع الداخلى الذى كان يمشى به على جسر إنس ، بل بإحساس أرنب تطارده كلاب الصيد . كان يستأثر بكيانه كله شعور واحد ، شعور الخوف على حياته الفتيّة السعيدة . وجرى عبر الحقل ، يثب فوق الشقوق فى الأرض بسرعة ، بنفس الاندفاع الذى كان يبديه فى لعبة الاستغماية ، وهو يدير وجهه الفتىّ ، الطيب المظهر ، الشاحب ، بين وقت وآخر ، لينظر إلى الخلف . وسرت فى جسمه قشعريرة رعب . وخطر له : « لا ، لا يحسن أن أنظر . . » ولكنه لما بلغ الشجيرات نظر حواليه مرة أخرى . كان الفرنسيون قد تخلفوا وراءه ، وفى اللحظة التى نظر فيها حوله ، كفّ الرجل الأول منهم عن جريه وتحول إلى السير ، والتفت ، وصاح شيئا بصوت مرتفع إلى زميله فى الخلف . وتوقف روستوف . وخطر له « لا ، إن هناك خطأ ما ، لا يمكن أنهم كانوا يريدون قتلى » ولكنه فى تلك اللحظة أحس ذراعه اليسرى ثقيلة . كأن ثقلا يزن سبعين رطلا كان مربوطاً بها . ولم يطق الجرى أكثر من ذلك . فوقف الفرنسى كذلك ، وسدد بندقيته . أغمض روستوف عينيه ، وانحنى . وصفّرت رصاصة ، ثم ثانية ، مارتين به . واستجمع آخر مابقى له من قوة ، وأمسك ذراعه اليسرى بذراعه اليمنى ، ووصل إلى الشجيرات . كان خلف الشجيرات بعض القنّاصة الروس .

الفصل العشرون

كانت فرق المشاة التى فوجئت فى أطراف الغابة ، تجرى هاربة منها ، وقد اختلطت السرايا المختلفة ، وتقهقرت فى حشود مضطربة . كان أحد

الجنود قد صاح ، فى خوفه ، صيحة لامعنى لها : «حوصرنا» ، وشد ما هى مخيفة هذه الصيحه فى المعركه ، فألهمت تلك الكلمة كل الحشد بشعور من الهلع .

وصاح الماربون :

ـــ حوصرنا ..! أحيط بنا ..! ضعنا ..!

وما أن سمع الجنرال إطلاق النار ، والصياح ، من خلف ، حتى تحقق أن شيئاً مخيفاً قد وقع لفرقته ، وكانت فكرة أنه ، وهو ضابط نموذجى طيلة خدمة سنوات عدة ، لم يوجه إليه اللوم قط ، يمكن أن يعد مسئولا فى القيادة العامة عن إهمال أو قصور ، قد أذهلته حتى نسى كولونيل الفرسان العاند ، وكرامته الشخصية بوصفه جنرالا ، ونسى الخطر ، قبل كل شىء ، تمام النسيان ، وكل اعتبار للابقاء على نفسه ، فأمسك بُرمانة سرجه ، ونخس حصانه ، وانطلق يعدو إلى الفرقة ، تحت وابل من الرصاص المتساقط حواليه ، وإن كان لم يصبه لحسن الحظ . كانت رغبته الواحدة أن يعرف ماذا يحدث ، وأن يقوّم ، بأى ثمن ، أو يعالج ، على أى حال ، ذلك الخطأ ، إن كان قد اقترف خطأ ، حتى لا يوّجه اللوم إلى ضابط نموذجى طيلة خدمته اثنتين وعشرين سنة ، لم يوجه إليه تقريع أبداً .

فلما عَبَر خطوط الفرنسيين ، بعدْوه ، بلغ ، سالماً ، حقلا خلف الغابة التى كان يجرى فيها رجالنا ، غير ملقين بالا إلى الأوامر ، منحدرين إلى الوادى . كانت قد حانت تلك اللحظة من التردد الخُلُقى التى تحسم مصير المعارك . أيصغى هذا الحشد المضطرب من الجنود لصوت قائدهم ، أم يغفلونه فيواصلون فرارهم ؟ بالرغم من صيحاته المستميتة التى شد ما كانت تبدو مخيفة عند الجنود ، وبالرغم من وجهه الغاضب المحتقن الذى شاه حتى فقد كل شبه بنفسه ، وبالرغم من أنه كان يشهر سيفه ويلوح به ، استمر الجنود يجرون ، ويتكلمون ، ويطلقون النار فى الهواء ، ويعصون

الأوامر . كان التردد الخلق الذى يحسم مصير المعارك ، فيا هو واضح ، ينتهى هنا إلى الفزع والذعر .

وأصابت الجنرال نوبة من السعال من أثر الصياح ، ودخان البارود ، فكفّ يائساً . وبدا أن كل شىء قد ضاع . ولكن الفرنسيين الذين كانوا يهاجمون ، جروا إلى الخلف فى تلك اللحظة ، دون أى سبب ظاهر واختفوا من أطراف الغابة ، وأظهر القناصة الروس أنفسهم فى الغابة . كانت تلك سرية تيموخين ، وكانت وحدها قد بقيت على نظامها فى الغابة ، وكانت قد كمنت فى خندق ، وأخذت تهاجم الفرنسيين الآن على غير انتظار . كان تيموخين ، غير مسلح إلا بسيفه فقط ، قد اندفع نحو العدو بصيحة مستميتة وعزم مجنون سكير بلغ منه أن الفرنسيين بوغتوا ، فألقوا ببنادقهم ، وجروا . وكان دولوخوف يجرى إلى جانب تيموخين ، فقتل فرنسياً وهو قريب منه جداً ، وكان أول من أمسك الضابط الفرنسى المسلّم من ياقته . عاد الهاربون منا ، وأعيد تشكيل الكتائب ، أما الفرنسيين الذين كانوا قد أوشكوا أن يقطعوا جناحنا الأيسر ، فقد رُدُّوا ، فى هذه الأثناء . واستطاعت وحدات احتياطينا أن تنضم الى القوات ، وانتهت المعركة . كان قائد الفرقة والماچور ايكونوموف قد وقفا إلى جانب جسر ، وتركا السرايا المتقهقرة تمر بجانبهما ، عندما أقبل جندى ، وأمسك بمهماز القائد ، موشكا أن يستند إليه . كان الجندى يرتدى چاكتة مزرقة من القماش الخشن ، ولم يكن عنده جرابندية ولا قبعة ، وكان رأسه معصوباً ، وعلى كتفه جراب من الذخيرة الفرنسية . وكان فى يده سيف أحد الضباط . كان الجندى شاحباً ، وعيناه الزرقاوان تنظران بوقاحة فى وجه القائد وشفتاه تبتسمان . وعلى أن القائد كان مشغولا بإصدار تعليماته للماچور ايكونوموف ، فلم يملك إلا أن يلحظ الجندى .

قال دولوخوف ، مشيراً إلى السيف والجراب الفرنسيين :

ـــ يا صاحب السعادة ، ها هما تذكاران . أسَرْتُ ضابطاً . وأوقفتُ السرية .

كان دولوخوف يتنفس بمشقة من الاجهاد ، ويتكلم فى جُمل مبتورة حادة :

ـــ السرية كلها تشهد على ذلك . ألتمس أن تتذكر ذلك ، يا صاحب السعادة . . !

فأجاب القائد :

ـــ حسناً ، حسناً .

والتفت إلى الماچور ايكومونوف .

إلا أن دولوخوف لم يمض ، بل فك المنديل المعصوب حول رأسه ، وجذبه ، وأظهر الدم المتجمد على شعره :

ـــ جرحٌ من حربة . ! لقد بقيت فى خطّ النار . تذكّر يا صاحب السعادة .

كانت بطارية توشين قد نُسِيَت. وفى نهاية المعركة تماما ، كان الأمير باجراتيون مازال يسمع ضرب المدافع فى الوسط ، فأرسل مراسلته ضابط الأركان ، وأرسل بعد ذلك أيضاً الأمير أندرو ، ليأمر البطارية بالتقهقر بأسرع مايمكن فعندما أُبعدت القوات المساندة لبطارية توشين ، فى وسط المعركة ، بأمرٍ ما من أحدهم ، استمرت البطارية تطلق النار ، ولم يأسرها الفرنسيون لسبب واحد ، هو أن العدو لم يكن ليمكن أن يفترض أن أحداً تبلغ به الصفاقة والجسارة أن يواصل الضرب من أربعة مدافع لاسند لها إطلاقاً . بالعكس ، كان عمل تلك البطارية ، بحيوية ونشاط ، يدعو الفرنسيين لافتراض أن القوات الروسية الرئيسية كانت مركزة هنا ، فى القلب . وحاولوا أن يهاجموا هذه النقطة مرتين ، وصدّوا فى كل

مرة برصاص الرش من المدافع الأربعة المزولة على التل .

كان توشين قد نجح ، وشيكا ، بعد أن بارحه الأمير باجراتيون ، فى أن يشعل النار فى شون جرابيرن .

وهتف رجال المدفعية وقد أشرقت وجوههم :

— أنظر إليهم يهرولون ..! إنهـا تحترق ..! انظر الدخان . . ! مدهش .. عظيم ..! انظر الى الدخان ..! الدخان ..!

كانت كل المدافع ، دون انتظار للأوامر ، تُطلق فى اتجاه الحريق . وكان الجنود يهتفون بأحدهم الآخر ، كما لو كانوا يحثون أحدهم الآخر:

— مدهش ..! هذا حسن..! انظر إليها .. عظيم . !

وكانت النار ، تؤججها الرياح ، تنتشر بسرعة . ورجعت الصفوف الفرنسية التى كانت تتقدم فيما وراء القرية ، إلا أن العدو ،كما لو كان ينتقم من هذا الفشل ، وضع عشرة مدافع على عين القرية ، وأخذ يطلقهـا فى اتجاه بطارية توشين .

على أن رجال مدفعيتنا ، فى جذلهم الصبيانى ، وقد استثارتهم النار ، وتوفيقهم فى ضرب الفرنسيين بالمدافع ضرباً ناجحاً ، لم يلحظوا هذه البطارية إلاعندما سقطت بين مدافعنا قنبلتان، ثم أربعة ، فأسقطت إحدى القنابلحصانين،وأطاحت قنبلة أخرى برجـلسائقإحدى عربات الذخيرة . إلا أن روحهم المعنوية كانت قد ارتفعت مرة ، فلم يصبها وهن ، بل تغيّر قِوامها فحسب . واستبدل بالحصانين غيرهما من عربة المدفع الاحتياطية ، وأبعد الجريح ، وسُددت المدافع الأربعة إلى بطارية المدافع العشرة . كان الضابط زميل توشين قد قتل فى بداية الاشتباك ، وفى خلال ساعة ، أُعجز سبعة عشر من جنود طاقم المدافع الأربعين ، إلا أن رجال المدفعية كانوا مايزالون على نفس المرح والحيوية . ولا حظوا الفرنسيين يقتربون مرتين من تحتهم ، فأطلقوا عليهم الرش .

وكان تيموشين الصغير ، وهو يتحرك بضعف وارتباك ، لاينى يقول لمراسلته : «إملأ لى البيبة من أجل هذه الطلقة ..!» ثم يبعثر الشرر منها وهو يجرى إلى الأمام يظلل عينيه ، لينظر إلى الفرنسيين .

ولا يفتأ يقول ، وهو يمسك المدافع من عجلاتها ، ويشغّل الصواميل بنفسه .

— إخبطوهم يا أولاد ..!

كان تيموشين فى وسط الدخان ، وقد أحمته الطلقات المتواصلة ، التى كانت دائماً تجعله يثب ، ولايرفع البيبة من فمه ، يجرى من مدفع إلى مدفع، يسدّد المدافع تارة ، ويُعد العبوّات تارة . ويصدر الأوامر حيناً باستبدال الخيل الجريحة أو النافقة ، ويربط خيل جديدة بالمدافع ، صائحاً بصوته الواهن ، على ارتفاع طبقته وفقدان نبرة العزم فيه ، وكان وجهه يزداد انفعالا وحيوية ، ولم يكن يعبس ويشيح بوجهه ، إلا عندما يقتل أحد الجنود أويصاب ، فيهتف غاضباً بالرجال الذين كانوا يترددون ، كما يحدث دائماً ، فى أن يرفعوا الجريح أو القتيل . وكان الجنود ، ومعظمهم على وسامة وحسن بنية ، أطول قامة وأعرض منكبين من ضابطهم مرتين ، كما يحدث دائماً فى المدفعية ، ينظرون إلى قائدهم كالأطفال فى موقف محرج ، وكان التعبير الذى على وجهه ينعكس ، لا محالة ، على وجوههم .

لم يكن توشين ، من أثر الضجيج المروّع ، والضرورة التى تقتضى التركز والنشاط ، يستشعر أى إحساس كريه بالخوف ، ولم تخطر له أبداً على فكر أنه عساه يقتل أو يصاب بجرح بليغ . بالعكس ، ازدادت نشوته وخفّته باطراد ، وخيل إليه أنه قد مرّ وقت طويل جداً ، يكاد يكون يوما بطوله ، منذ رأى العدو ، وأطلق أول طلقة ، وأن ركن الميدان الذى كان يقف عليه أرضٌ مألوفة معروفة حق المعرفة . وعلى أنه كان يفكر فى كل شىء ، ويضع كل شىء موضع الاعتبار ، ويقوم بكل شىء

يمكن أن يقوم به أحسن الضباط فى موقفه. فقد كان فى حال قريبة من الهذيان المحموم أو السكر .

ومن أصوات مدافعه نفسها ، التى تصمّ الآذان حواليه ، ومن صفير وارتطام قنابل مدافع العدو ، ومن وجوه المدفعيين المضرّجة المنداة بالعرق ، وهم منشغلون حول المدفع ، ومن مرأى دم الجنود والخيل ، ومن هبات الدخان الصغيرة - فى جانب العدو ، تتبعها دائماً قنبلة تنطلق فترتطم بالأرض ، برَجل ، أو بمدفع ، أو بحصان - من مرأى كل هذه الأشياء ، استأثر بذهنه عالمٌ خرافىّ غريب ،خاص به ، كان فى تلك اللحظة يمنحه سروراً . لم تكن مدافع العدو فى وهمه ، مدافع، بل بيبات ينفخ منها مدخّنٌ خفىٌّ هبّات من الدخان بين الحين والحين .

فتمتم توشين لنفسه ، إذ ترتفع سحابة صغيرة من التل ، تحملها الرياح فتستحيل شريطاً إلى اليسار :

— ها هو ذا .. إنه ينفث الدخان ثانية . والآن انتبه للقنبلة .. سوف نصدّها .

سأله مدفعى كان يقف قريباً منه وسمعه يتمتم :

— ماذا تريد سعادتك ؟

فأجاب :

— لاشىء .. قنبلة فقط .

وقال لنفسه .

— هيا ، ماتيڤنا ياصاحبتنا . ! .

كان ماتيڤنا — بنت متّى — هو الاسم الذى يطلقه فى خياله على أقصى مدفع فى البطارية ، وكان مدفعاً ضخما من طراز قديم وكان الفرنسيون المتزاحمون حول مدافعهم يبدون له كالنمل . وفى ذلك العالم ، كان رقم واحد من طاقم المدفع الثانى ، وهو فتى وسيم سكير ، هو « الم » ، كان توشين

ينظر إليه أكثر مما ينظر إلى أى شخص آخر ، ويسعده أن يرقب كل حركة من حركاته . وكانت أصوات طلقات البنادق ، فى سفح التل تهون وتخف حينا ، ثم تزداد وتعنف حينا ، فتبدو له كأنفاس شخص ما . وكان يصغى بانتباه إلى رتفاع هذه الأصوات وانحسارها .

ويتمتم لنفسه :

ــ آه ، يتنفس ثانية ، يتنفس ..!

وكان يتصور نفسه رجلا هائل الطول والقوة ، يقذف الفرنسيين بقنابل المدافع ، بكلتى يديه .

وكان يقول إذ ينتقل من ناحية المدفع :

ــ والآن يا ماتفيڤنا ياسيدتى العجوز العزيزة ، لا تخذلينى ..!

إذ سمع صوتاً غريباً غير مألوف يناديه من فوق رأسه :

ــ كابتن توشين ..! كابتن ..!

فاستدار توشين فى استياء . كان ذلك ضابط الأركان الذى طرده من الخيمة عند جرونت . وكان يهتف فى صوت مبهور الأنفاس :

ــ أمجنون أنت ؟ لقد صدرت إليك الأوامر مرتين بالتقهقر ، وأنت ...

خطر لتوشين وهو ينظر ، قلِقاً ، إلى الضابط الأعلى منه رتبة :

ــ لماذا يُنحون علىّ ؟

وتمتم ، وهو يرفع إصبعين إلى قبعته :

ــ أنا ... لست ... أنا ...

لكن ضابط الأركان لم يكمل ما كان بسبيل أن يقول ، فقد انطلقت قنبلة مدفع قريبة منه . فأحنى رأسه وجسمه على حصانه وتوقف لحظة ، وكان يوشك أن يزيد ، عند ما أوقفته قنبلة أخرى ، فأدار حصانه وعدا مبتعداً .

وصاح من بعد :

— تقهقروا ..! الكل يتقهقر ..!

فضحك الجنود وبعد لحظة وصل ياور بنفس الأمر .

وكان ذلك هو الأمير أندرو كان أول ما رآه عندما أقبل راكباً إلى المكان الذى تقع فيه مدافع توشين ، حصاناً مطلق اللجام مكسور الساق كان الحصان يرقد وهو يجأر بصراخ مثير للشفقة ، بجانب الجياد المربوطة وكان الدم ينبثق من ساقه كما ينبثق من ينبوع . وكان يرقد بين حوامل المدافع عدد من الجنود القتلى ، ومرت فوقه قنبلة إثر قنبلة وهو يدنو . وخامرته رجفة عصبية سرت فى عموده الفقرى . لكن مجرد فكرة الخوف أثارت حميته مرة أخرى . وخطر له وهو يترجل ببطء بين المدافع : « لا يمكن أن أكون خائفاً » ، وأبلغ الأمر ، ولم يبارح البطارية . وقرر أن يتم استبعاد المدافع من مواقعها وسحبها ، فى حضوره ، وعُنى ، مع توشين ، بإتمام استبعاد المدافع ، تحت نيران رهيبة من الفرنسيين .

قال أحد رجال المدفعية :

— كان هنا ضابط من الأركان منذ لحظة ، لكنه وثب ماضيا بسرعة ، ليس كسعادتك ..!

لم يقل الأمير أندرو شيئا لتوشين . كانا ، كلاهما ، عاكفين على عملهما حتى لاح أنهما لا يلقيان بالاً لأحدهما الآخر . فلما رفع المدفعان الوحيدان الباقيان دون عطب من الأربعة ، على حاملهما . وأخذوا يتحركون منحدرين على التل — تركوا خلفهم مدفعاً محطماً ، ومدفع « وحيد القرن »[1] ، وأقبل الأمير أندرو على جواده ، إلى توشين . وقال وهو يمد يده له :

---

(١) كان المدفع « وحيد القرن » ، ككل مدافع ذلك العهد ، مدفعاً مصقول الماسورة ، ويعبأ من فوهته ، لكنه كان غريب الشكل إذ يضيق فى اتجاه فوهته .

— حسناً ... إلى اللقاء مرة أخرى ..

قال توشين :

— إلى اللقـاء ياصاحبي العزيز ..! ياعزيزى . إلى اللقاء ، ياصاحبي العزيز ..!

وامتلأت عيناه بالدموع فجأة ، لا لسبب معروف .

الفصل الحادى والعشرون

كانت الريح قد هبطت، والسحب السوداء ، ممتزجة بدخان البارود ، منخفضة دانية فى سماء ساحة القتـال ، على الأفق . وكانت الظلمة تسود ، ووهج الحريقين يسطع جلياً . وكانت ضربات المدفعية تهمد وتهدأ ، لكن قرقعةطلقات البنادق ، من خلف وإلى اليمين ، تدوى أقرب وأغلب تردداً . وما أن تجاوز توشين ومدافعه نطاق النيران، وهو يستدير باستمرار حول الجرحى أو يمر بهم ، وانحدر إلى الفور ، حتى لقيه بعض ضباط الأركان وزيركوف الذى كان قد أرسل مرتين إلى بطارية توشين ، لـكنه لم يبلغها أبداً . وكانوا جميعاً يقاطعون أحدهم الآخر ، وهم يصـدرون أو ينقلون الأوامر عن كيفية السير ، ويقرعونه ويلقون عليه باللوم . لم يصدر توشين أمراً ما ، وواصل سيره ، على حصان مدفعيته ، صامتاً ، فقد كان يخشى أن يتكلم ، إذ كان يحس أنه على استعداد للبكاء ، عند أية كلمة ، دون أن يعرف لِمَ . وعلى أن الاوامر كانت تقضى بأن يُهجر الجرحى فقد كان الـكثيرون منهم يجرّون أنفسهم خلف الجنود ، يتوسلون أن يتاح لهم الجلوس على عربات المدافع . أما ضابط المشاة المرح الجسور الذى كان قد اندفع ، قبل المعركة مباشرة ، من كوخ توشين المبنى من أغصان السنط ، فقد كان ممدداً على عربة ما تقيئنا ، وفى معدته رصاصة . وعند سفح التل أقبل على توشين صف ضابط من الفرسان ، شاحب الوجه ، يسند يده باليد الأخرى

وطلب من توشين مقعداً .

وقال بخجل :

— كابتن ، بحق الله ..! لقد أصيبت ذراعي . بحق الله ..! لا أستطيع المشي . بحق الله . !

كان واضحاً أن صف الضابط قد طلب ، عدة مرات من قبل . أن يتاح له الجلوس ، وقوبل بالرفض ، وطلب بصوت متردد مثير للرثاء :

— قل لهم أن يعطوني مقعداً بحق الله ..!

قال توشين لجنديه الأثير لديه :

— أعطه مقعداً . وافرش عباءة له ليرقد عليها يا بني . وأين الضابط الجريح ..؟

فأجاب أحدهم :

— أُنزل . فقد مات .

— ساعدوه اجلس يا صاحبي العزيز ، اجلس ..! افرش العباءة يا أنطونوف .

كان صف الضابط هو روستوف ، وكان يسند يده باليد الأخرى ، وكان شاحباً يرتعش فكه ، ويرتجف رجفة المحموم . ووضع على ماتيڤنا المدفع الذي أنزلوا من عليه الضابط القتيل . وكانت العباءة التي فرشوها تحته مبللة بالدم ، فلطخ بنطلونه ، وذراعه .

قال توشين وهو يدنو من المدفع الذي جلس عليه روستوف :

— ماذا ، أأنت جريح يا بني ؟

— لا ، انه التواء .

فسأل توشين :

— فما هذا الدم إذن على عربة المدفع ؟

فأجاب جندي المدفعية ، وهو يمسح الدم بذراع جاكتته ، كما لو كان

يعتذر من حالة المدفع :

— إنه الضابط يا صاحب السعادة ، لطخه .

وبذلوا كل ما وسعهم حتى يرفعوا المدفعين على المرتقى ، يساعدهم المشاة ، فلما بلغوا قرية جروتتر سدورف ، كفّوا . وكانت الظلمة قد بلغ منها أن المرء لم يكن يتبين الحلل العسكرية على عشر خطوات ، وكان إطلاق النار قد بدأ ينحسر ويتراخى . وبغتة سُمع صياح وإطلاق نار مرة أخرى، قريباً إلى اليمين . وكانت ومضات الرصاص تتوهج فى الظلام. كان ذلك هو الهجوم الفرنسى الأخير، فصدّه جنود محتمون بمخابىء من بيوت القرية . اندفع الجنود جميعا خارجين من القرية ، ثانية ، لكن مدفعا توشين لم يكن من الممكن أن يتحركا ، وترامق رجال الدفعية ، وتوشين ، وصف الضابط ، بنظرات صامتة، إذ ينتظرون مصيرهم . وهمد إطلاق النار ، وتدفق جنودٌ ، وهم يتحدثون فى لهفة وحماس. ، من شارع جانبى .

قال أحدهم متسائلا :

— لم تُصَب يا بيتروف ؟

وقال آخر :

— أذقناهم إياها حامية يا صاحبي . . ! فلن يقوموا الآن بدفعة أخرى ...

— لم يكن ممكناً أن ترى شيئا . كيف أطلقوا النار على جنودهم أنفسهم ..! لم يكن يمكن أن يرى شىء . ظلام دامس يا أخى ! أليس هناك ما يُشرب ؟

كان الفرنسيون قد رُدّوا على أعقابهم للمرة الأخيرة وكان مدفعا توشين يتحركان المرة بعد المرة فى الظلام المطبق ، يحدق بهما المشاة وهم يتكلمون فى طنين متصل ، كأنهم الإطار المحيط .

وكان يلوح فى الظلمة كما لو كان نهرٌ خفى معتم ، ينساب فى اتجاه

واحد ، وهو يطن بالهمس والكلام وصوت السنابك والعجلات . وفى الدمدمة الشائعة كانت أصوات الجرحى وأنينهم تُسمع بأوضح مما يسمع به أى صوت آخر فى ظلام الليل. كانت الجهامة التى تحدق بالجيش ممتلئة بأناتهم التى يبدو أنها تذوب متحدة بظلمة الليل وبعد فترة انتاب الحشود المتحركة هيجان ، ومرّ شخص راكباً على جواد أبيض يتبعه مرافقوه ، وقال فى مروره شيئاً .

وجاءت أسئلة متلهفة من كل الجوانب :

— ماذا قال ؟ إلام الآن ؟ نقف ، أليس كذلك ؟ هل وجّه إلينا الشكر ؟

وأخذت الحشود المتحركة بأسرها تتضاغط وثيقة معاً ، وشاع خبر أنهم مأمورون بالوقوف . كان واضحا أن أولئك الذين فى المقدمة قد وقفوا . وظلوا جميعا حيث كانوا ، فى وسط الطريق الموحلة .

أوقدت النيران ، وعلت أصوات الكلام . وأصدر توشين أوامره إلى سريته ، وأرسل جنديا يبحث عن مركز للأسعاف ، أو طبيب ، لصف الضابط ، وجلس إلى نار أوقدها الجنود على الطريق . وجرّ روستوف نفسه أيضاً إلى النار . وكانت تهز جسمه كله رجفةٌ محمومة من الألم والبرد والرطوبة . وكان النعاس يغلبه على أمره ، لا يقاوم ، لكن ألماً مبرّحاً فى ذراعه كان يبقيه يقظاً ، فلم يكن ليستطيع أن يجد لذراعه وضعاً يقرّ إليه . وكان يغمض عينيه باستمرار ، ثم ينظر إلى النار وقد لاحت له حمراء ساطعة ، وإلى قامة توشين الواهنة بكتفيه المدوّرتين ، وكان هذا يجلس القرفصاء كالأتراك إلى جانبه . كانت عينا توشين الواسعتان الحانيتان مثبتتين فى عطف ورحمة بروستوف، وكان روستوف يرى أن توشين يود لو ساعده ، من كل قلبه ، لكنه لا يستطيع .

وسمع من كل الجوانب ، وقع خطى المشاة وكلامهم ، كانوا يسيرون

ويعرون بالعربات ، ويتخذون لأنفسهم مقراً ، فى كل مكان حوالبهم. وامتزجت الأصوات ، ووقع الأقدام المدبدبة ، وسنابك الخيل التى تتحرك فى الوحل ، وقرقعة نيران الخشب قريبة وعلى مبعدة ، كلها فى دمدمة واحدة مرتجة .

لم يعد كما كان من قبل ، ذلك النهر المظلم الخفى يجرى فى العتمة ، بل بحراً مظلماً ، يرتفع ثم ينحسر تدريجيا بعد العاصفة. وكان روستوف ينظر ويصغى ، من غير راحة ، إلى مايجرى أمامه وحواليه . وأقبل إلى النار جندى من المشاة ، وقعد على عقبى رجليه ، ومد يديه إلى اللهب ، وأشاح بوجهه .

وسأل توشين :

— أتسمح ياصاحب السعادة ؟ لقد فقدت سريتى ياصاحب السعادة . لست أدرى أين ... ياله من حظ سىء ..!

وجاء مع الجندى ضابط من المشاة ، معصوب الخد ، أقبل إلى النار والتفت إلى توشين يسأله أن يحرك الدفعين قليلا ، حتى يفسح السبيل لمرور عربة . وبعد أن مضى ، اندفع جنديان إلى النار الموقدة . كانا يتشاحنان ، ويتقاتلان باستماتة ، كل منهما يحاول أن ينتزع من الآخر حذاء يمسكان به كلاهما .

وصاح أحدهم بصوت مبحوح :

— أنت التقطته ؟ صحيح . ! أنت بارع جداً . !

ثم جاء جندى نحيل شاحب ، عنقه معصوب بشريط ملوث بالدم من أشرطة السيقان ، وطلب ماء من رجال الدفعية ، بصوت غضوب ، وقال :

— أيجب أن يموت المرء كالكلب ؟

فأمرهم توشين بأن يسقوا الرجل شيئا من ماء . ثم أقبل إليهم جندى مرح يجرى ، وطلب جذوة نار للمشاة :

— جذوة صغيرة ظريفة للشـاة ..! صادفكم الحظ الحسن يا أهل الوطن ..!

وقال وهو يحمل عصا متوهجة فى الظلمة :

— أشكركم على النار . سنردها مع الفوائد .

وجاء بعد ذلك أربعة جنود ، يحملون شيئا ثقيلا على عباءة ، ومروا بجانب النار . وتعثر أحدهم ، فقال وهو ينبح من الغضب :

— مَن وضع الخشب على الطريق بحق الشيطان ..؟

قال آخر :

— إنه ميت ، لماذا نحمله ؟

— إخرس ...!

واختفوا فى الظلمة بحملهم .

همس توشين إلى روستوف يسأله :

— مازالت تُوجع ؟

— نعم .

قال مدفعىّ وهو يقبل إلى توشين :

— ياصاحب السعادة ، الجنرال يطلبك . إنه فى الكوخ هنا .

— حاضر ياصاحبى .

نهض توشين ، وزرر معطفه الكبير ، وشده يسويه ، وسار مبتعداً عن النار .

كان الأمير باجراتيون يجلس إلى العشاء ، فى كوخ أعد له على عير مبعدة من النار التى أوقدهـا رجال المدفعية ، وهو يتكلم إلى بعض الضباط من القواد اجتمعوا فى مقره . كان معه العجوز الصغير القامة ، بعينيه نصف المغمضتين ، حالساً يغمز عظمة ضأن فى نهم والجنرال الذى استمر فى الخدمة ، لا تشوبه شائبة ، اثنين وعشرين سنة ، وقد تضرج وجهه من

قدح من الفودكا والعشاء ، وضابط الأركان بخاتمه الذى يوقع به، وزيركوف ، يرمقهم جميعا بنظرات غير مرتاحة ، والأمير أندرو شاحبا مضغوط الشفتين عيناه تتألقان ألقا محموما .

وقام فى ركن بالكوخ ، علمٌ أخذ من الفرنسيين. وكان المحاسب الساذج الوجه يتحسس نسيجه ، ويهز رأسه كما لو كان متحيّراً — فعسى العَلم كان يشوقه فعلا ، وعساه كان شاقا عليه ، على جوعه ، أن ينظر إلى عشاء ليس له مكان إليه . وكان فى الكوخ التالى كولونيل فرنسى أسره فرساننا من فرقة الدراجون . وكان ضباطنا يتزاحمون لرؤيته . وكان الأمير باجراتيون يشكر الضباط القواد ، كلا منهم على حدة ، ويسأل عن تفاصيل المعركة ، وعن خسائرنا . وكان الجنرال الذى استُعرضت فرقته عند برونو يبلغ الأمير أنه ما كادت المعركة تبدأ حتى انسحب من الغابة ، وجمع الرجال الذين كانوا يقطعون الخشب ، وأتاح للفرنسيين أن يمروا به ، ثم هجم بالسونكى ، بكتيبتيْه ، وبدّد شمل القوات الفرنسية .

— عندما رأيت يا صاحب السعادة أن كتيبتهم الأولى قد تشتت نظامها ، وقفت فى الطريق وفكرت : « سأتركهم يأتون ثم أقابلهم بنيران الكتيبة كلها . » — هذا ما فعلت .

كان الجنرال قد ودّ لو أنه فعل ذلك ، وأسف لأنه لم يستطيع أن يفعل ، حتى بدا له أن ذلك ما حدث حقاً . فعسى ذلك مما حدث حقاً ؟ أيستطيع المرء أن يتبين ما حدث وما لم يحدث فى وسط كل ذلك الاضطراب ؟

واستمر يقول ، وقد تذكر حديث دولوخوف إلى كوتوزوف ، ولقاءه الأخير مع هذا النفر الجندى الآتى من صفوف السادة :

— وينبغى علىّ ، يا صاحب السعادة ، بالمناسبة ، أن أخبرك أن النفر دولوخوف الذى كان قد أُنزلت رتبته ، أسر ضابطاً فرنسياً ، بحضورى ،

وبرز فى القتال تبرزاً كبيراً .

وأكمل زيركوف ، وهو ينظر حواليه بقلق :

— لقد رأيت فرسان بافلوجراد يهاجمون هناك ، يا صاحب السعادة.

لم يكن قد رأى الفرسان طيلة ذلك اليوم ، لكنه سمع عنهم من ضابط بالمشاة .

— لقد حطموا طابورين ، يا صاحب السعادة .

وابتسم كثير من الحضور، لكلمات زيركوف ، منتظرين إحدى نكاته المألوفة، لـكنهم لما رأوا أن ما كان يقول إنما يقال تمجيداً لجيوشنا، ولعمل اليوم ، اتخذوا مظهراً جاداً ، وإن كان الـكثير منهم يعرفون أن ما كان يقول إنما هو كذبة يعوزها كل أساس . استدار الأمير باجراتيون إلى الكولونيل الشيخ :

— أيها السادة . أشكركم جميعاً . إن كل الأسلحة قد قامت بأعمـال بطولة : المشاة ، والفرسان ، والمدفعية .

ثم سأل وهو يبحث عن شخص ما بعينيه :

— كيف حدث أن تُرك مدفعان وحدهما فى القلب ؟

لم يسأل الأمير باجراتيون عن مدافع الجناح الأيسر، فقد كان يعرف أن كل المدافع هناك قد تركت منذ بداية المعركة . والتفت إلى ضابط الأركان المنوط بالخدمة :

— أظننى أرسلتك ؟

أجاب ضابط الأركان :

— أصيب أحدها بعطب ، أما الآخر فلست أفهم . كنت هناك طيلة الوقت ، أبلغ الأوامر ، وكنت قد مضيت للتو عندما ...

ثم أضاف فى تواضع :

— الحقيقة أنها كانت حامية ، هناك .

فقال أحد الحاضرين أن الكابتن تيموشين معسكر قريباً من القرية ، وقد أرسل فى طلبه فعلا .

قال الأمير باجراتيون موجهاً الحديث إلى الأمير أندرو :

— أوه .. لكنك قد كنت هناك ؟

قال ضابط الأركان مبتسما إلى بولكونسكى :

— بالطبع ، فاتنا أن نلتقى بأحدنا الآخر بلحظة .

قال الأمير أندرو ، بلهجة باردة قاطعه :

— لم يكن لى السرور أن أراك .

فصمت الجميع . وظهر توشين على العتبة ، واتخذ طريقه خجلا ، من وراء ظهور الجنرالات . وكان إذ يخطو ماراً بالجنرالات ، فى الكوخ المزدحم ، وقد أشعره بالحرج مرأى رؤسائه من الضباط ، كما يقع له دوماً ، فلم يلحظ سارية العلم ، وتعثر بها . فضحك كثير من الحضور .

وسأل باجراتيون :

— كيف حدث أن مدفعاً تُرك فى الميدان ؟

كان عابساً ، وليس عبوسه متجها للكابتن ، بقدر ماهو متجه لأولئك الذين ضحكوا ، وكان أعلاهم ضحكا زيركوف .

أما توشين ، فلم يبد له كل عاره وإثمه ، بكل بشاعتهما ، إذ فقد مدفعين وبقى مع ذلك حياً ، إلا الآن فى مواجهة السلطات الصارمة المتجهمة بإزائه . كان قد بلغ به الانفعال أنه لم يفكر فى ذلك إلا فى تلك اللحظة . وزاد ارتباكه من ضحك الضباط . فوقف أمام باجراتيون ، كفه السفلى ترتعش ، لايكاد يسعه أن يتمتم :

— لست أدرى . . يا صاحب السعادة ... لم يكن عندى رجال . . يا صاحب السعادة .

— كان فى وسعك أن تأخذ بعض الرجال من القوات المساندة .

لم يقل توشين أنه لم يكن هناك قوات مساندة على أن ذلك كان صحيحا كل الصحة . كان يخشى أن يجلب المتاعب على ضابط آخر ، فثبت عينيا صامتا يحدق الى باجراتيون ، كما يحدق تلميذ مخطىء إلى الممتحن .

وساد الصمت بعض الوقت . لم يجد الأمير باجراتيون شيئا يقوله ، فيظهر انه لم يكن يبغى أن يقسو ، ولم يجسر الآخرون على التدخل ونظر الأمير أندرو الى توشين ، من تحت حاجبيه ، وأصابعه ترتعش رعشة عصبية .

قطع الأمير أندرو الصمت بصوته القاطع :

— ياصاحب السعادة . أنت تفضلت بإرسالى إلى بطارية الكابتن توشين . فذهبت هناك ووجدت ثلثي الجنود والجياد قد أصيبت ، ومدفعين قد تحطما ، ولم تكن هناك قوات مساندة على الإطلاق .

نظر الأمير باجراتيون ، وتوشين ، بقدر سواء من الحدة والانتباه ، إلى بولكونسكى ، الذى كان يتكلم باهتياج مكبوح . واستأنف يقول :

— وإذا سمحت لى سعادتكم بأن أعبر عن رأيى ، فنحن ندين بنجاح اليوم ، أساساً ، إلى عمل هذه البطارية ، ولثبات الكابتن توشين وسريته ، ثباتاً بطولياً .

ونهض الأمير أندرو ، دون أن ينتظر إجابة . وبارح المائدة .

نظر الأمير باجراتيون إلى توشين ، وواضح أن لايود أنه يبدى إنكاره لرأى بولكونسكى القاطع ، وهو غير قادر مع ذلك أن يثق فى هذا الرأى ملء الثقة ، فأنغض رأسه ، وقال لتوشين أن بوسعه أن يمضى فخرج معه الأمير أندرو .

قال توشين :

— أشكرك . أنت أنقذتنى ياصاحبى العزيز !.

فرمقه الأمير أندرو بنظرة ، لكنه لم يقل شيئا ، ومضى مبتعداً . كان

يخامره حسٌّ بالحزن والهبوط . شد ما كان ذلك كله غريباً ، وشد ما كان مختلفاً عما كان يأمل .

كان روستوف يفكر ناظراً إلى الظلال المتغيرة أمامه :

— من هم ؟ لم هم هنا ؟ ماذا يريدون ؟ ومتى ينتهى كل هذا ؟

زادت حدة الألم فى ذراعه ، وزادت . وغلبه على أمره نعاس لا يُقاوم ، وتراقصت أمام عينيه حلقـات حمراء ، وامتزج بألمه الجسمانى أثر هـذه الأحداث والوجوه ، وحسٌّ بالوحشة . إنهم هم ، هؤلاء الجنود — جرحى وغير جرحى — هم الذين كانوا يسحقون ويلوون ويطـأون عضلات ذراعه وكتفه الملوية ، ويلذعون بالنـار لحمهما . وأغمض عينيه ليخلص نفْسه منهم .

وغفا لحظة ، ولـكن أشياء لا عداد لها فى تلك اللحظة الوجيزة ظهرت له فى الحلم . أمه ويدها الـكبيرة البيضاء ، كتفا سونيا الصغيرتان الناحلتان ، عينا ناتاشا وضحـكها ، ودينيزوف بصوته وشاربه ، وتليانين ، وكل تلك الحـكاية مع تليانين وبوجدانيش ، تلك الحـكاية كانت نفس الشىء ، ذلك الجندى بصوته الخشن الجافى ، بعينه ، وتلك الحـكاية ، هما اللذان يجذبان ويضغطان ذراعه فى إلحاح ممض معذب ، ويجذبانه دائما فى اتجاه واحد وحاول أن يبتعد عنهما . لـكنهما لم يكونا ، لحظة واحدة ، يدعان كتفه تتحرك قيد شعرة . لم تـكن كتفه لتوجعه — كانت لتشفى — لو أنهما لم يجذباها ، على أنه من المستحيل أن يتخلص منهما .

فتح عينيه ، ورفع بصره . كانت خيمة الليل السوداء معلقة أقل من متر فوق وهج جذوات النار . وكانت ندف الثلج الساقط تتطاير فى ذلك الضوء ، ولم يكن توشين قد عاد ، ولا الطبيب قد جاء ، كان الآن وحده ، فيما عدا جندى ، جلس عاريا على الجانب الآخر من النار ، يدفىء جسمه الأصفر الناحل .

وكان روستوف يفكر :

— لا أحد يريدنى .. ! لا أحد يساعدنى أو يشفق علىّ . ومع ذلك فقد كنت فى البيت ذات يوم ، قويا ، سعيداً ، ومحبوباً .

وتنهد ، وندت ، بلا اختيار عنه وهو يفعل ، أنّة .

سأله الجندى وهو يهز قميصه على النار :

— هيه ، يوجعك شىء ؟

ولم ينتظر رداً ، بل زام ، وقال :

— كم من الرجال أُعجزوا اليوم — هذا فظيع ..!

لم يصغ روستوف إلى الجندى . نظر إلى ندف الثلج تتطاير فوق النار ، وتذكر شتاءً قضاه فى بيته الوضىء الدفىء فى روسيا ، ومعطفه الفرائى الوثير ، وزحافته السريعة الانزلاق ، وجسده السليم الممتلىء صحة ، ومحبة عائلته ، ورعايتها ، وتساءل :

— ولماذا جئت هنا ؟

لم يجدد الفرنسيون هجومهم فى اليوم التالى ، وانضمت بقايا فرقة باجراتيون إلى جيش كوتوزوف .

مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب

رقم الايداع بدار الكتب٧٠٣٢ / ١٩٩٣

I.S.B.N. 977-01 - 3442 - 2

الحرب والسلام

الغلاف للفنان: محمود الهندى

هذا هو الجزء الثانى من إلياذة العصور الحديثة. أساس الرواية الحديثة فى العالم. عوالم بأكملها. الحب. البغض. الصراعات السياسية. الفكرية. القتال. عالم الحرب بما يحويه من شجاعة وخوف من أمل وألم. جسّد ليوتولستوى هذا العمل الفذ ليصبح علامة ثابتة على مر الأزمنة والدهور وفى ترجمة دقيقة أدبية قدم الروائى الكبير إدوار الخراط نموذجا عظيما لكيفية ترجمة العمل الأدبى من لغة إلى لغة بحيث يمكن القول أن الخلق فى ترجمة الحرب والسلام إلى العربية يقف بمحاذاة الخلق فى إبداعها مما جعل المراجع الأدبية فى العالم تعتمد هذه الترجمة لتلك الرائعة الأدبية والإنسانية التى نقدمها كاملة فى سلسلة أدب الحرب.

جمال ال

Bibliotheca Alexandrina
0435675

مطابع الهيئة المصرية

٢٩٠ قرشا